
موقف الإسلام العقدي
من كفر اليهود والنصارى
لا إله إلا الله
محمد رسول الله
تأليف
الدكتور يوسف القرضاوي
مؤسسة الرسالة
http://kotob.has.it/

مَوقِفُ الإِسلام العَقَدِيّ

مِن كُفرِ اليَهُودِ وَالنّصارَى

الدكتور يوسف القرضاوي

مؤسسة الرسالة



الحمد لله وكفىٰ، وسلام على رسله الذين اصطفى، وعلى خاتمهم المجتبى، محمد وآله وصحبه ومن بهم اقتدى فاهتدى.

(أما بعد)

فهذه الرسالة أردت بها تصحيح مفهوم عقدي، التبس على بعض الناس، وسألني عنه أكثر من سائل، وناقشني فيه منذ سنوات كاتب مسلم معروف، كان في ذهنه شبهات حوله، وقد زالت حين أوضحتها له.

وقد عشنا حتى رأينا البدهيات العقدية يغشاها الضباب والاضطراب، حتى تختلط وتلتبس على بعض العقول، فإن كفر اليهود والنصارى، من (المعلوم من دين الإسلام بالضرورة) كما هو معروف.

ولكنا غدونا في زمن عملت فيه الفتن الفكرية عملها، حتى أوشكت أن تحول القطعيات إلى محتملات، أو هكذا تحاول.

ومن هنا عنيت ببيان هذا الأمر، والرد على الكاتبة التي أثارته في مقالة لها في إحدى صحف قطر، تعليماً للجاهل وتبصرة، وتنبيهاً للغافل وتذكرة، وإفحاماً للمعاند المكابر، وإقامة للحجة عليه، ليهلك من هلك عن بينة، ويحي من حيَّ عن بينة.

وقد بينت أن كفر أهل الكتاب من اليهود والنصارى، لا يعني أنهم ملاحدة منكرون للألوهية، فليس هو كفر إلحاد وجحود بالله تعالى ولقائه ووحيه. ولكنه كفر تحريف وتبديل للدين، وتشويه لعقيدة الألوهية والنبوة.

وأننا نعتقد كفرهم بديننا، كما يعتقدون هم كفرنا بدينهم. وهذا من حقهم، كما هو من حقنا.

وأنهم ـ مع هذا ـ لهم منزلة خاصة، باعتبارهم أهل دين سماوي في الأصل، ويشاركونا في مجمل الإيمان بالله وبالوحي وبالدار الآخرة، وبعبادة الله، وبالقيم الأخلاقية.

ولهذه المنزلة أجاز لنا الإسلام أن نأكل ذبائحهم، ونتزوج نساءهم، مع اعتقادنا بكفرهم، وهذه قمة في التسامح مع المخالف.

وقد غرس الإسلام في عقلية كل مسلم مفاهيم أساسية للتسامح، لم يرق إليها أي دين من الأديان، بيناها بإجمال، ليعلم من لم يكن يعلم: أن الاعتقاد بالكفر لا يناقض التسامح أبداً.

أسأل الله أن ينفع بهذه الرسالة، ويزيح بها الغشاوة عن العيون حتى ترى، وعن العقول حتى تفقه. والله يقول الحق، وهو يهدي السبيل.

الدوحة: صفر الخير ١٤٢٠ هـ — يونيو ١٩٩٩ م

يوسُف القرضاوي

موقف الإسلام العقدي من كفر اليهود والنصارى

الحمد لله وكفى، وسلام على عباده الذين اصطفى.

(أما بعد)

فإن من أخطر القضايا التي نبهت عليها في أكثر من كتاب لي: محاولة خصوم الفكر الإسلامي التشكيك في (المسلّمات) وبذل الجهد في تحويل (اليقينيات) إلى (ظنيات) و(القطعيات) إلى (محتملات) قابلة للأخذ والرد، والجذب والشد، والقيل والقال.

وحسبهم الوصول إلى هذه النتيجة (زحزحة الثوابت) أو مناطحتها بغية (تذويبها) حتى لا تقف سداً منيعاً أمام الذين يريدون أن يهدموا حصون الأمة، أو على الأقل: يخترقوا أسوارها.

وقد وجدنا في عصرنا من يشكك في تحريم الخمر أو الربا، أو في إباحة الطلاق وتعدد الزوجات بشروطه، بل من يشكك في حجية السنة النبوية، بل وجدنا من يدعو إلى أن نطرح علوم القرآن كلها، وكل مواريثنا من الثقافة القرآنية، ونلقيها في سلة المهملات، لنبدأ قراءة القرآن من جديد قراءة معاصرة، غير مقيدة بأي قيد ولا ملتزمة بأي علم سابق، ولا بأية قواعد أو ضوابط مما قرره علماء الأمة على توالي القرون.

والليـالـي مـن الـزمـان حبـالـى مثقـلات، يلــدن كـل عجيـب!

ومما ولدته الليالي الحاملة بالعجائب: ما يذهب إليه بعض الناس الذين أقحموا أنفسهم على الثقافة الإسلامية، دون أن يتأهلوا لها بما ينبغي من علم القرآن والسنة ولغة العرب وعلومها، وأصول الفقه، وتراث السلف، فدخلوا فيما لا يحسنون، وخاضوا فيما لا يعرفون، وأفتوا بغير علم، وحكموا بغير بينة، ودعوا على غير بصيرة، وقالوا على الله ما لا يعلمون.

ومن ذلك: زعمهم أن أهل الكتاب من اليهود والنصارى ليسوا كفاراً، فإن كانوا يقصدون أنهم ليسوا ملحدين منكرين للألوهية والوحي، فهذا ادعاء صحيح، ولا يجوز الخلاف فيه.

وإن كانوا يقصدون أنهم ليسوا كفاراً بدين محمد ورسالته وقرآنه ـ وهو المراد من إطلاق الكفر عليهم ـ فهذه دعوى باطلة من غير شك.

فإن كفر اليهود والنصارى من أوضح الواضحات بالنسبة لأي مسلم عنده ذرة من علم الإسلام، ومما أجمعت عليه الأمة على اختلاف مذاهبها وطوائفها، طوال العصور، لم يخالف في ذلك سني ولا شيعي ولا معتزلي ولا خارجي، وكل طوائف الأمة الموجودة اليوم من أهل السنة والزيدية والجعفرية والأباضية، لا يشكون في كفر اليهود والنصارى وكل من لا يؤمن برسالة محمد عليه الصلاة والسلام، فهذا من المسلمات الدينية المتفق عليها نظراً وعملاً، بل هي من (المعلوم من الدين بالضرورة) أي مما يتفق على معرفته الخاص والعام، ولا يحتاج إلى إقامة دليل جزئي للبرهنة عل صحته.

وسر ذلك: أن كفر اليهود والنصارى لا يدل عليه آية أو آيتان، أو عشرة أو عشرون، بل عشرات الآيات من كتاب الله، وعشرات الأحاديث عن رسول الله ﷺ.

كما يشهد بذلك كل من قرأ القرآن أو درس الحديث. وما كنت أظن أن أجد مسلماً يعارض صريح كتاب الله تعالى وقواطع النصوص برأيه وهواه.

وأنا أقصد بالحكم عليهم بالكفر: ما يتعلق بأحكام الدنيا، فالناس ينقسمون عندنا إلى قسمين لا ثالث لهما، إما مسلم وإما كافر، فمن ليس بمسلم فهو كافر، ولكن الكفار أنواع ودرجات، منهم أهل الكتاب ومنهم المشركون، ومنهم الجاحدون الدهريون، وكذلك منهم المسالمون، ومنهم المحاربون، ولكل منهم حكمه.

أما فيما يتعلق بأحكام الآخرة، وهل هذا الكافر ناج أو معذب؟ فهذا موكول إلى علمه تعالى وعدله. وقد قال تعالى: ﴿ أُخْرَىٰۗ وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّىٰ نَبْعَثَ رَسُولًا ۝١٥ ﴾ [الإسراء: ١٥] فأما الكافر الذي لم تبلغه الدعوة أصلاً، أو لم تبلغه بلوغاً مشوقاً يحمل على النظر والبحث أو حالت حوائل قاهرة دون دخوله في الإسلام، فهذا لا يكون من المعذبين حسب وعد الله تعالى وعدله.

والقرآن إنما توعد الذين شاقوا الرسول من بعد ما تبين لهم الهدى، كبراً وعلواً، أو حسداً وبغياً، أو حباً للدنيا، أو تقليداً أعمى إلخ، كما قال تعالى: ﴿ وَمَن يُشَاقِقِ ٱلرَّسُولَ مِنۢ بَعۡدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُ ٱلۡهُدَىٰ وَيَتَّبِعۡ غَيۡرَ سَبِيلِ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ نُوَلِّهِۦ مَا تَوَلَّىٰ وَنُصۡلِهِۦ جَهَنَّمَۖ وَسَآءَتۡ مَصِيرًا ۝١١٥ ﴾ [النساء: ١١٥].

يقول شيخنا شلتوت رحمه الله:

هذا، ولقد كنت عرضت بسرعة للحديث عن كفر أهل الكتاب في أحد دروس صلاة التراويح في شهر رمضان بالمسجد الكبير بالدوحة، ولم أكن أعلم أن هناك من عقب على هذا الأمر، حتى أخبرني به بعض الإخوة الفضلاء من قريب، فسعيت إلى استحضاره، لأعلم ماذا قيل في ذلك.

وقد عجبت كل العجب من هذ المقال المطول الذي نشرته صحيفة (الوطن) القطرية باسم (سراب الحافظ) وكنت أظنه (اسماً مستعاراً) وقلت في نفسي: إن صاحب المقال اختار اسماً يعبر عن حقيقة مقولته، فهي (سراب) بقيعة يحسبه الظمآن ماء حتى إذا جاءه لم يجد شيئاً.

ولكن بعض الإخوة قالوا لي: إنه اسم حقيقي، وإنه اسم لسيدة وليس لرجل.

وعلى كل حال نحن نناقش القول، ولا يهمنا القائل. والحق أني تحاملت على نفسي لأكتب هذا الرد، إيضاحاً للحقيقة، وإقامة للحجة، وإعذاراً إلى الله تعالى: ﴿ لِيَهْلِكَ مَنْ هَلَكَ عَنْ بَيِّنَةٍ وَيَحْيَىٰ مَنْ حَيَّ عَنْ بَيِّنَةٍ ﴾ [الأنفال: ٤٢].

ولعل الأخت الكاتبة التبس عليها الأمر بسبب قراءة ناقصة للنصوص غير مستوعبة، أو قراءة انتقائية لبعض النصوص دون بعض، أو بسبب فهم غير سليم لبعض المفاهيم الإسلامية، لقصور في ثقافتها الشرعية، وتكوينها العلمي فإن كانت تنشد الحق فستجد في تعقيبي

هذا ما يهديها إليه، وينير لها الطريق إن شاء الله، وإن كانت متعصبة لرأيها، فحسبي أني بلَّغت وبيَّنت ﴿ قَدْ جَآءَكُم بَصَآئِرُ مِن رَّبِّكُمْ فَمَنْ أَبْصَرَ فَلِنَفْسِهِۦ وَمَنْ عَمِىَ فَعَلَيْهَا وَمَآ أَنَا عَلَيْكُم بِحَفِيظٍ ﴿١٠٤﴾ ﴾ [الأنعام: ١٠٤].

حقيقة الإيمان بالغيب:

تقول الكاتبة: إن المفهوم الأساسي للإيمان في القرآن والسنة النبوية المشرفة هو: الإيمان بالغيب، أي الإيمان: بالله واليوم الآخر، على ملة إبراهيم عليه السلام، والكفر هو عكس الإيمان بالغيب، أي: الكفر بالله واليوم الآخر، والشرك بالله هو في حكم الكفر به.

وذكرت في ذلك آيات كريمة تدل على وجوب الإيمان بالله واليوم الآخر.

ونحن نرى معها ضرورة الإيمان بالغيب، ومنه الإيمان بالله واليوم الآخر، ولكنا ننكر عليها: إخراجها الإيمان بالنبوة والرسالة من الإيمان بالغيب، مع أن الإيمان بكتب الله تعالى ورسله هو جزء من الإيمان بالغيب لا ريب فيه.

وكأن الكاتبة تتوهم أن الإيمان بالكتب هو إيمان بالورق الذي كتبت عليه والمداد الذي كتبت به، فلهذا لم تعتبره من الإيمان بالغيب، وكذلك توهمت أن الإيمان بالرسل يعني: الإيمان بأشخاصهم المنظورة والمتحركة أمام الأعين، فلهذا لم تعدها من الإيمان بالغيب. مع أن المقصود من ذلك هو: الإيمان بأن الله تعالى أوحى إلى رسله، وأنزل عليهم كتباً، وبلغهم أوامر ونواهي، عن طريق ملائكته أو عن طريق الإلهام المباشر، وهذه كلها من أمور الغيب،

فالإيمان بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر، كلها من الإيمان بالغيب.

وقد استشهدت الكاتبة ببعض الآيات والأحاديث التي اكتفت في مجال الإيمان بذكر الإيمان بالله واليوم الآخر، ولم تذكر الإيمان برسل الله عز وجل، وحسبت أن ذلك حجة قاطعة لها. وهي مخطئة في ذلك بيقين.

فالنصوص القرآنية والحديثية تجمل أحياناً، وتفصل أحياناً حسب المقام.

فأحياناً تذكر كل متعلقات الإيمان وأركانه، مثل قوله تعالى: ﴿ وَلَٰكِنَّ ٱلْبِرَّ مَنْ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْآخِرِ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةِ وَٱلْكِتَٰبِ وَٱلنَّبِيِّـۧنَ ﴾ [البقرة: ١٧٧] ﴿ ءَامَنَ ٱلرَّسُولُ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيْهِ مِن رَّبِّهِۦ وَٱلْمُؤْمِنُونَ كُلٌّ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَمَلَٰٓئِكَتِهِۦ وَكُتُبِهِۦ وَرُسُلِهِۦ ﴾ [البقرة: ٢٨٥].

وأحياناً يذكر الإيمان بالله واليوم الآخر، كما في الآيات التي ذكرتها الكاتبة وغيرها. ذلك: أن الإيمان بالله والإيمان بالجزاء الأخروي هما أعظم أركان الإيمان.

وأحياناً يذكر الإيمان بالله ورسله، كما في قوله تعالى: ﴿ سَابِقُوٓاْ إِلَىٰ مَغْفِرَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا كَعَرْضِ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ أُعِدَّتْ لِلَّذِينَ ءَامَنُواْ بِٱللَّهِ وَرُسُلِهِۦ ﴾ [الحديد: ٢١] ﴿ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ بِٱللَّهِ وَرُسُلِهِۦٓ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلصِّدِّيقُونَ وَٱلشُّهَدَآءُ عِندَ رَبِّهِمْ ﴾ [الحديد: ١٩].

وأحياناً يذكر الإيمان بالله تعالىٰ وبما أنزل علىٰ رسله، كما في قوله تعالى: ﴿ قُولُوٓاْ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَمَآ أُنزِلَ إِلَيْنَا وَمَآ أُنزِلَ إِلَىٰٓ إِبْرَٰهِـۧمَ وَإِسْمَٰعِيلَ

وَإِسْحَٰقَ . . . ﴾ [البقرة: ١٣٦].

وأحياناً يذكر الإيمان بما أنزل الله فقط، كما في قوله تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ ءَامِنُوا۟ بِمَا نَزَّلْنَا مُصَدِّقًا لِّمَا مَعَكُم ﴾ [النساء: ٤٧] وقوله تعالى لبني إسرائيل: ﴿ وَءَامِنُوا۟ بِمَآ أَنزَلْتُ مُصَدِّقًا لِّمَا مَعَكُمْ ﴾ [البقرة: ٤١].

وأحياناً يذكر الإيمان بالله تعالى دون غيره من بقية الأركان، كقوله تعالى: ﴿ كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِٱلْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ ﴾ [آل عمران: ١١٠] وقوله سبحانه: ﴿ وَمَن يُؤْمِنۢ بِٱللَّهِ يَهْدِ قَلْبَهُۥ ﴾ [التغابن: ١١] ﴿ فَمَن يَكْفُرْ بِٱلطَّٰغُوتِ وَيُؤْمِنۢ بِٱللَّهِ فَقَدِ ٱسْتَمْسَكَ بِٱلْعُرْوَةِ ٱلْوُثْقَىٰ ﴾ [البقرة: ٢٥٦] ﴿ وَمَن يُؤْمِنۢ بِٱللَّهِ وَيَعْمَلْ صَٰلِحًا يُدْخِلْهُ جَنَّٰتٍ ﴾ [الطلاق: ١١].

بل أحياناً يذكر كلمة الإيمان مجردة من متعلقاتها، كما في النداء القرآني المتكرر: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ﴾، ﴿ ٱللَّهُ وَلِىُّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ يُخْرِجُهُم مِّنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ ﴾ [البقرة: ٢٥٧] ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ يُدَٰفِعُ عَنِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ ﴾ [الحج: ٣٨] وهذا كثير في القرآن.

وهذا الاكتفاء في بعض المواضع ببعض أركان الإيمان لا يعني الاستغناء عن بقية الأركان، فالقرآن يفسر بعضه بعضاً، ويصدق بعضه بعضاً، فما أجمل في مكان فصل في آخر، وما أبهم في موضع بينّ في غيره، وما أطلق في موقع قيد في موقع آخر، ولا بد أن يؤخذ القرآن كله، ولا نؤمن ببعض الكتاب ونكفر ببعض، ولو كان من عند غير الله لوجدوا فيه اختلافاً كثيراً.

ومن ذلك: الاكتفاء بشهادة أن لا إله إلا الله في بعض النصوص،

وذلك لأن الكلام كان مع مشركي العرب، والمعركة الأساسية معهم كانت على التوحيد، فإذا قالوا: لا إله إلا الله، فقد استجابوا لمحمد ﷺ، ولم يفهم أحد في الأولين ولا الآخرين أنهم إذا قالوا: لا إله إلا الله وكفروا بمحمد، كانوا مؤمنين ناجين.

وكنت أود من الكاتبة التي ذكرت بعض أحاديث البخاري ومسلم التي اكتفت بإعلان (لا إله إلا الله) أن تذكر الأحاديث الأخرى التي اشترطت كل أركان الإيمان.

وذلك مثل الحديث المشهور المعروف بحديث جبريل، حين سأل النبي ﷺ عن الإيمان، فقال: «الإيمان أن تؤمن بالله وملائكته وكتبه ورسله وتؤمن بالبعث بعد الموت»[1].

ومثل ما رواه عنه ابن عمر: «أمرت أن أقاتل الناس حتى يشهدوا أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله، ويقيموا الصلاة ويؤتوا الزكاة..»[2].

وما رواه عنه عبادة بن الصامت: «من شهد أن لا إله إلا الله، وحده لا شريك له، وأن محمداً عبده ورسوله، وأن عيسى عبد الله ورسوله، وكلمته ألقاها إلى مريم وروح منه، والجنة حق، والنار حق، أدخله الله الجنة على ما كان من العمل»[3].

وما رواه ابن عباس أن رسول الله ﷺ قال لمعاذ بن جبل، حين

---

(١) انظر اللؤلؤ والمرجان فيما اتفق عليه الشيخان حديث رقم (١٥).
(٢) المصدر السابق: ١٥.
(٣) نفسه: ١٧.

بعثه إلى اليمن: «إنك ستأتي قوماً أهل كتاب، فإذا جئتهم فادعهم إلى أن يشهدوا أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله، فإن هم أطاعوك بذلك، فأخبرهم أن الله قد فرض عليهم خمس صلوات.. »[1] الحديث.

وما رواه أبو هريرة: «والذي نفس محمد بيده لا يسمع بي أحد من هذه الأمة يهودي أو نصراني ثم يموت ولم يؤمن بالذي أرسلت به إلا كان من أصحاب النار»[2].

ثم إن الكاتبة تشترط أن يكون إيمان المؤمن من أهل الكتاب على ملة إبراهيم عليه السلام، ولا أدري من أين تعرف ملة إبراهيم، وأي مصدر تعتمد عليه في ذلك؟

إن المصدر الفذ لمعرفة ملة إبراهيم هو المصدر الإسلامي، أي: هو القرآن، وما يبينه من السنة، فالقرآن هو الوثيقة السماوية الوحيدة التي نأمن أن نأخذ منها معارفنا، دون أن نخشى تسلل الباطل والوهم والتحريف إليها.

اتباع المتشابهات:

ولقد كنت نبهت في كتابي (المرجعية العليا في الإسلام للقرآن والسنة) وأكدت ذلك في كتابي (كيف نتعامل مع القرآن العظيم) على قضية في غاية الخطر، وهي التعويل على (المتشابهات) من النصوص

---

(١) رواه البخاري في كتاب الزكاة. حديث (١٤٩٦)، ومسلم في الإيمان.

(٢) رواه مسلم عن أبي هريرة. برقم ١٥٣.

والإعراض عن (المحكمات) فهذا شأن الذين في قلوبهم زيغ، كما نص القرآن في الآية السابعة من سورة آل عمران: ﴿ فَأَمَّا ٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِمْ زَيْغٌ فَيَتَّبِعُونَ مَا تَشَٰبَهَ مِنْهُ ٱبْتِغَآءَ ٱلْفِتْنَةِ وَٱبْتِغَآءَ تَأْوِيلِهِۦ ﴾ [آل عمران: ٧].

وليس هذا شأن الراسخين في العلم، المتمكنين في الدين، فإنهم يردون المتشابهات إلى المحكمات، ذلك أن المحكمات هي الأصل، وهي أم الكتاب ومعظمه، فيجب أن تفهم المتشابهات في ضوئها، وفي إطارها، فهي التي تضبطها وتحكمها. ولكن هؤلاء ـ للأسف الشديد ـ يعكسون القضية، اتباعاً لأهوائهم، أو لأهواء الذين لا يعلمون.

وقد رأينا الكاتبة ـ هدانا الله وإياها ـ تركض وراء المتشابهات من النصوص، تريد أن تتخذ منها أساساً لمقولتها، وتغفل النصوص المحكمة القطعية، التي لا شبهة في دلالتها، ولا يتطرق إليها احتمال يوهن من قيمتها وبخاصة أنها تستند إلى هذه المتشابهات، ولا تعني بنقل رأي علماء الأمة في فهمها ودلالتها. . مرة واحدة نقلت عن ابن عطية ولم يغنها نقلها من الحق شيئاً.

اعتمدت على قول الله تعالى: ﴿ وَكَيْفَ يُحَكِّمُونَكَ وَعِندَهُمُ ٱلتَّوْرَىٰةُ فِيهَا حُكْمُ ٱللَّهِ ثُمَّ يَتَوَلَّوْنَ مِنۢ بَعْدِ ذَٰلِكَ ۚ وَمَآ أُو۟لَٰٓئِكَ بِٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٤٣﴾ ﴾ [المائدة: ٤٣] مع أن المقصود بحكم الله في الآية هو حكم الرجم الذي حاولوا التهرب منه، كما ذكرت الباحثة ذلك نقلاً عن صحيح البخاري.

واعتمدت كذلك على قوله سبحانه: ﴿ وَلْيَحْكُمْ أَهْلُ ٱلْإِنجِيلِ بِمَآ أَنزَلَ

ٱللَّهُ فِيهِۚ وَمَن لَّمْ يَحْكُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْفَٰسِقُونَ ﴿٤٧﴾ ﴾ [المائدة: ٤٧]. والمراد: الحكم بما أنزل الله فيه من البشارة بمحمد ورسالته، وغير ذلك من الأحكام والوصايا الأخلاقية.

وكان الأولى بها إن كانت تنشد الحق أن ترجع إلى أهل الاختصاص من الأئمة والمفسرين السلف والخلف، لمعرفة ماذا قالوا في الآيتين.

أم تريد أن تقول: إنها لا تحتاج إلى ذلك؟ فهي أعلم من كل علماء الأمة، مفسرين ومحدثين ومتكلمين وفقهاء!!

ما قاله صاحب المنار في تفسير الآيات:

اقرأ معي في تفسير المنار حول الآيات التي استشهدت بها الكاتبة، وهي قوله تعالى: ﴿ وَكَيْفَ يُحَكِّمُونَكَ وَعِندَهُمُ ٱلتَّوْرَىٰةُ فِيهَا حُكْمُ ٱللَّهِ ثُمَّ يَتَوَلَّوْنَ مِنۢ بَعْدِ ذَٰلِكَۚ وَمَآ أُوْلَٰٓئِكَ بِٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٤٣﴾ ﴾ [المائدة: ٤٣].

يقول صاحب المنار: هذا تعجيب من الله لنبيه ببيان حال من أغرب أحوال هؤلاء القوم، وهو أنهم أصحاب شريعة يرغبون عنها ويتحاكمون إلى نبي جاء بشريعة أخرى وهم لم يؤمنوا به. أي: وكيف يحكمونك في قضية كقضية الزانيين أو قضية الدية والحال أن عندهم التوراة التي هي شريعتهم فيها حكم الله فيما يحكمونك فيه، ثم يتولون عن حكمك بعد أن رضوا به وآثروه على شريعتهم لموافقته لها؟ أي: إذا فكرت في هذا رأيته من عجيب أمرهم، وسببه: أنهم ليسوا بالمؤمنين إيماناً صحيحاً بالتوراة ولا بك، وإنما هم ممن جاء فيهم

﴿ أَفَرَءَيْتَ مَنِ ٱتَّخَذَ إِلَٰهَهُۥ هَوَىٰهُ وَأَضَلَّهُ ٱللَّهُ عَلَىٰ عِلْمٍ ﴾ [الجاثية: ٢٣] فإن المؤمن الصادق بشرع لا يرغب عنه إلى غيره إلا إذا آمن بأن ما رغب إليه شرع من الله أيضاً أيد به الأول، أو نسخه لحكمة اقتضت ذلك باختلاف أحوال عباده. وهؤلاء تركوا حكم التوراة التي يدّعون الإيمان بها واتباعها لأنه لم يوافق هواهم. وجاؤك يطلبون حكمك رجاء أن يوافق هواهم، ثم يتولون ويعرضون عنه إذا لم يوافق هواهم. فما هم بالمؤمنين بالتوراة ولا بك، ولا بمن أنزل على موسى التوراة وأنزل عليك القرآن، وقد يقولون أنهم مؤمنون، وقد يظنون أيضاً أنهم مؤمنون، غافلين عن كون الإيمان يقينا في القلب، يتبعه الإذعان بالفعل، ويترجم عنه اللسان بالقول. ولكن اللسان قد يكذب عن علم وعن جهل فمن أيقن أذعن، ومن أذعن عمل. لأن الإيمان الإذعاني هو صاحب السلطان الأعلى على الإرادة، والإرادة هي المصرفة للجوارح في الأعمال.

أما حكم الرجم في التوراة التي بين أيدينا اليوم فهو خاص ببعض الزناة. قال في الفصل ٢٢ سفر التثنية بعد بيان أن من تزوج فوجدها ثيباً ترجم عند باب بيت أبيها: (٢٢ إذا وجد رجل مضطجعاً مع امرأة زوجة بعل يقتل الاثنان، الرجل المضطجع مع المرأة والمرأة، فتنزع الشر من إسرائيل (٢٣) إذا كانت فتاة عذراء مخطوبة لرجل، فوجدها رجل في المدينة فاضطجع معها فأخرجوهما كليهما إلى باب تلك المدينة، وارجموهما بالحجارة حتى يموتا - الفتاة من أجل أنها لم تصرخ في المدينة، والرجل من أجل أنه أذل امرأة صاحبه فتنزع الشر من وسطك) ثم ذكر أحكاماً أخرى في الزنا، منها قتل أحد الزانيين ومنها دفع غرامة والتزوج بالمزني بها.

ومما يجب التنبيه له هنا: أن دعاة النصرانية يحتجون بهذه الآية وما في معناها على كون التوراة التي في أيديهم وأيدي اليهود هي ما أنزله الله تعالى على موسى لم يعرض لها تغيير ولا تحريف. ذلك أنهم كأولئك اليهود الذين يأخذون من القرآن ما يوافق أهواءهم ويردون ما يخالفها جدلاً. والمؤمنون يؤمنون بالكتاب كله، فالكتاب بين لنا أن عندهم التوراة أي: الشريعة، وأن فيها حكم الله في القضية التي تحاكموا فيها إلى النبي ﷺ وقد صدق الله تعالى وهو أصدق القائلين. وبين لنا أيضاً: أنهم حرَّفوا الكلم عن مواضعه ومن بعد مواضعه، وأنهم نسوا حظاً مما ذكروا به وأنهم إنَّما أوتوا نصيباً من الكتاب إذ نسوا نصيباً آخر وأضاعوه. وقد صدق الله تعالى في ذلك أيضاً. ولما خرجت أمة القرآن بالقرآن من الأمية وعرفوا تاريخ أهل الكتاب وغيرهم كالبابليين ظهر لهم: أن إخبار القرآن بذلك كان من معجزاته الدالة على أنه من عند الله، إذ ظهر لهم أن اليهود قد فقدوا التوراة التي كتبها موسى ثم لم يجدوها، وإنما كتب لهم بعض علمائهم ما حفظوه منها ممزوجاً بما ليس منها، والتوراة التي في أيديهم تثبت ذلك، كما بيناه في غير هذا الموضع.

ومنه تفسير أول سورة آل عمران وتفسير الآية ١٤ و١٥ من هذه السورة:

﴿ إِنَّآ أَنزَلْنَا ٱلتَّوْرَىٰةَ فِيهَا هُدًى وَنُورٌ ۚ يَحْكُمُ بِهَا ٱلنَّبِيُّونَ ٱلَّذِينَ أَسْلَمُوا۟ لِلَّذِينَ هَادُوا۟ وَٱلرَّبَّـٰنِيُّونَ وَٱلْأَحْبَارُ بِمَا ٱسْتُحْفِظُوا۟ مِن كِتَـٰبِ ٱللَّهِ وَكَانُوا۟ عَلَيْهِ شُهَدَآءَ ۚ فَلَا تَخْشَوُا۟ ٱلنَّاسَ وَٱخْشَوْنِ وَلَا تَشْتَرُوا۟ بِـَٔايَـٰتِى ثَمَنًا قَلِيلًا ۚ وَمَن لَّمْ يَحْكُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ فَأُو۟لَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلْكَـٰفِرُونَ ﴿٤٤﴾ ﴾ [المائدة: ٤٤] إلى قوله

تعالى: ﴿ وَلْيَحْكُمْ أَهْلُ ٱلْإِنجِيلِ بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ فِيهِۚ وَمَن لَّمْ يَحْكُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْفَٰسِقُونَ ﴿٤٧﴾ ﴾ [المائدة: ٤٧].

قال صاحب المنار: هذه الآيات من سياق التي قبلها والتي بعدها، والغرض منها بيان كون التوراة كانت هداية لبني إسرائيل، فأعرضوا عن العمل بها لما عرض لهم الفساد، وبيان مثل ذلك في الإنجيل وأهله، ثم الانتقال من ذلك إلى ما سيأتي من ذكر إنزال القرآن ومزيته وحكمة ذلك. ومنه يعلم: أن العبرة بالاهتداء بالدين وأنه لا ينفع أهله الانتماء إليه إذا لم يقيموه، إذ لا يستفيدون من هدايته ونوره، إلا بإقامته والعمل به، وأن إيثار أهل الكتاب أهواءهم على هداية دينهم، هو الذي أعماهم عن نور القرآن والاهتداء به.

قال تعالى: ﴿ إِنَّآ أَنزَلْنَا ٱلتَّوْرَىٰةَ فِيهَا هُدًى وَنُورٌ ﴾ [المائدة: ٤٤]. أي: إنا نحن أنزلنا التوراة على موسى مشتملة على هدي في العقائد والأحكام خرج به بنوا إسرائيل من وثنية المصريين وضلالهم، وعلى نور أبصروا به طريق الاستقلال في أمر دينهم ودنياهم ﴿ يَحْكُمُ بِهَا ٱلنَّبِيُّونَ ٱلَّذِينَ أَسْلَمُواْ لِلَّذِينَ هَادُواْ ﴾ أنزلنا قانوناً للأحكام يحكم بها النبيون ـ موسى ومن بعده من أنبياء بني إسرائيل ـ طائفة من الزمان، انتهت ببعثة عيسى ابن مريم عليه السلام. وهم الذين أسلموا وجوههم لله مخلصين له الدين على ملة إبراهيم عليهم الصلاة والسلام، فالإسلام دين الجميع، وكل ما استحدثه اليهود والنصارى من أسباب التفرق في الدين، فهو باطل وضلال مبين. وإنما يحكمون للذين هادوا أي: اليهود خاصة. لأنها شريعة خاصة بهم لا عامة، ولذلك قال آخرهم عيسى: لم أرسل إلا إلى خراف إسرائيل الضالة. ولم يكن

لداود وسليمان وعيسى من دونها شريعة.

وقال تعالى: ﴿ وَلْيَحْكُمْ أَهْلُ ٱلْإِنجِيلِ بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ فِيهِ ﴾ قرأ الجمهور: ﴿ وَلْيَحْكُمْ ﴾ بصيغة الأمر، وهو حكاية حذف منها لفظ القول ـ ومثله كثير في القرآن ـ أي وقلنا، ليحكم أهل الإنجيل بما أنزله الله فيه من الأحكام، أي أمرناهم بالعمل به، فهو مثل قوله في أهل التوراة ﴿ وَكَتَبْنَا عَلَيْهِمْ فِيهَآ ﴾ كذا وكذا. وقرأ حمزة: ﴿ وَلِيَحْكُمَ ﴾ بكسر اللام، أي ولأجل أن يحكم أهل الإنجيل بما أنزل الله فيه. وجوزوا أن يكون قوله: ﴿ وَهُدًى وَمَوْعِظَةً ﴾ مفعولا لأجله وعطف ﴿ وَلِيَحْكُمَ ﴾ عليه مع إظهار اللام لاختلاف الفاعل، وكيفما قرأت وفسرت لا تجد الآية تدل على أن الله تعالى يأمر النصارى في القرآن بالحكم بالإنجيل كما يزعم: دعاة النصرانية بما يغالطون به عوام المسلمين. ولو فرضنا أنه أمرهم بذلك بعبارة أخرى لتعين أن يكون الأمر للتعجيز وإقامة الحجة عليهم، فإنهم لا يستطيعون العمل بالإنجيل ولن يستطيعوه. وسيأتي لهذا البحث تتمة.

﴿ وَمَن لَّمْ يَحْكُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْفَٰسِقُونَ (٤٧) ﴾ [المائدة: ٤٧] أي فأولئك هم الخارجون من حظيرة الدين الذين لا يعدون منه في شيء، أو الخارجون من الطاعة له المتجاوزون لأحكامه وآدابه.

وقال تعالى بعد ذلك: ﴿ وَأَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ بِٱلْحَقِّ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ ٱلْكِتَٰبِ وَمُهَيْمِنًا عَلَيْهِ ۖ فَٱحْكُم بَيْنَهُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ ۖ وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَآءَهُمْ عَمَّا جَآءَكَ مِنَ ٱلْحَقِّ ۚ لِكُلٍّ جَعَلْنَا مِنكُمْ شِرْعَةً وَمِنْهَاجًا ۚ وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ لَجَعَلَكُمْ أُمَّةً وَٰحِدَةً وَلَٰكِن لِّيَبْلُوَكُمْ فِى مَآ ءَاتَىٰكُمْ ۖ فَٱسْتَبِقُوا۟ ٱلْخَيْرَٰتِ ۚ إِلَى ٱللَّهِ مَرْجِعُكُمْ جَمِيعًا فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ (٤٨) وَأَنِ ٱحْكُم بَيْنَهُم بِمَآ أَنزَلَ

ٱللَّهُ وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَآءَهُمْ وَٱحْذَرْهُمْ أَن يَفْتِنُوكَ عَنۢ بَعْضِ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ إِلَيْكَ ۖ فَإِن تَوَلَّوْا۟ فَٱعْلَمْ أَنَّمَا يُرِيدُ ٱللَّهُ أَن يُصِيبَهُم بِبَعْضِ ذُنُوبِهِمْ ۗ وَإِنَّ كَثِيرًا مِّنَ ٱلنَّاسِ لَفَٰسِقُونَ ﴿٤٩﴾ أَفَحُكْمَ ٱلْجَٰهِلِيَّةِ يَبْغُونَ ۚ وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ ٱللَّهِ حُكْمًا لِّقَوْمٍ يُوقِنُونَ ﴿٥٠﴾ ﴾ [المائدة: ٤٨ ـ ٥٠].

يقول صاحب المنار: هذه الآيات تتمة السياق: بين الله تعالى شأنه إنزال التوراة ثم الإنجيل على بني إسرائيل، وما أودعه فيهما من هدى ونور، وما حتم عليهم من إقامتهما، وما شدد عليهم من إثم ترك الحكم بهما، فناسب بعد ذلك أن يذكر إنزاله القرآن على خاتم النبيين والمرسلين، ومكانه من الكتب التي قبله، وكون حكمته تعالى اقتضت تعدد الشرائع ومناهج الهداية ـ فتلك مقدمات ووسيلة، وهذا هو المقصد والنتيجة، قال: ﴿ وَأَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ بِٱلْحَقِّ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ ٱلْكِتَٰبِ وَمُهَيْمِنًا عَلَيْهِ ﴾ أي: وأنزلنا إليك الكتاب الكامل الذي أكملنا به الدين، فكان هو الجدير بأن ينصرف إليه معنى الكتاب الإلهي عند الإطلاق، وهو القرآن المجيد ـ هذه حكمة التعبير بالكتاب بعد التعبير عن كتاب موسى باسمه الخاص [التوراة] وعن كتاب عيسى باسمه الخاص [الإنجيل] ـ ومثل هذا إطلاق لفظ النبي حتى في كتبهم ـ وقوله: بالحق إلخ معناه أنزلنا متلبساً بالحق مؤيداً به مشتملاً عليه مقرراً له، بحيث لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه، مصدقاً لما تقدمه من جنس الكتب الإلهية كالتوراة والإنجيل، أي: ناطقاً بتصديق كونها من عند الله، وأن الرسل الذين جاءوا بها لم يفتروها من عند أنفسهم.

وأما قوله: ومهيمنا عليه ـ أي على جنس الكتاب الإلهي ـ

فمعناه: أنه رقيب عليها وشهيد، بما بينه من حقيقة حالها، في أصل إنزالها، وما كان في شأن من خوطبوا بها، من نسيان حظ عظيم منها وإضاعته، وتحريف كثير مما بقي منها وتأويله، والإعراض عن الحكم والعمل بها، فهو يحكم عليها لأنه جاء بعدها. روى ابن جرير عن ابن عباس أنه قال: «ومهيمنا عليه» يعني: أميناً عليه، يحكم على ما كان قبله من الكتب. وفي رواية عنه عند الفريابي وسعيد بن منصور والبيهقي ورواة التفسير المأثور قال: مؤتمنا عليه. وفي رواية أخرى قال: شهيداً على كل كتاب قبله. اهـ.

هل تكفي (لا إله إلا الله) وحدها؟

واعتمدت الكاتبة كذلك على الأحاديث التي جعلت نجاة الإنسان وخلاصه في قول: «لا إله إلا الله» أي: في عدم الشرك، ولم تذكر شهادة أن محمداً رسول الله. وذكرت لنا جملة أحاديث صحاح وردت بذلك.

ولسنا ننكر صحة هذه الأحاديث، ولكننا ننكر ما فهمته منها، فهو فهم خاطىء لعدة أدلة:

أولها: أن في مقابل هذه الأحاديث أحاديث صحاحا جمة أخرى، تشترط الشهادتين للنجاة وقد ذكرنا بعض هذه الأحاديث في موضع آخر. والأمانة العلمية تقتضي أن تذكر هذه الأحاديث بجانب تلك، لا أن تنتقي ما يفيد دعواها، وتغض الطرف عما ينقضها.

وثانيها: أن بعض هذه الأحاديث هو اختصار من الرواة في بعض الروايات، وفيها روايات أخرى تذكر الشهادتين جميعاً كما في حديث

معاذ، في أن من قال: (لا إله إلا الله) دخل الجنة أو حرمه الله على النار، أو نحو ذلك، جاء في بعض الروايات في صحيح البخاري بالشهادتين جميعاً، كما رواه في كتاب العلم أنه ﷺ قال له: «ما من أحد يشهد أن لا إله إلا الله، وأن محمداً رسول الله، صدقاً من قلبه، إلا حرمه الله على النار». قال: يا رسول الله، أفلا أخبر به الناس فيستبشروا؟ قال: «إذن يتكلوا» وأخبر بها معاذ عند موته تأثماً[1].

وثالثها: أن العلماء بينوا السر في هذا الاختصار، فذكروا في حديث «من قال: (لا إله إلا الله) دخل الجنة» قالوا: والمراد: مع قوله: «محمد رسول الله» لكن قد يكتفي بالجزء الأول من كلمتي الشهادة؛ لأنه صار شعاراً لمجموعهما[2].

ورابعها: أن هذا الاختصار على شهادة الوحيد (أن لا إله إلا الله) أو على ترك الشرك (من لقي الله لا يشرك به شيئاً) ـ لا يفيد الكاتبة فيما تدعيه للمسيحيين من صحة إيمانهم وأنهم من أهل التوحيد، أو أهل (لا إله إلا الله) إذ أن أهل هذه الكلمة هم أمة محمد وحدهم، أما المسيحيون فقد قال الله تعالى في شأنهم: ﴿ ٱتَّخَذُوٓاْ أَحْبَارَهُمْ وَرُهْبَـٰنَهُمْ أَرْبَابًا مِّن دُونِ ٱللَّهِ وَٱلْمَسِيحَ ٱبْنَ مَرْيَمَ وَمَآ أُمِرُوٓاْ إِلَّا لِيَعْبُدُوٓاْ إِلَـٰهًا وَٰحِدًا ۖ لَّآ إِلَـٰهَ إِلَّا هُوَ ۚ سُبْحَـٰنَهُۥ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿٣١﴾ ﴾ [التوبة: ٣١] نسبهم الله صراحة إلى الشرك، وإن لم يسموا (المشركين) تمييزاً لهم عن عبدة الأوثان.

---

(١) انظر فتح الباري جـ١/ ٣٠٠، ٣٠١ الطبعة السلفية حديث ١٢٨.

(٢) فتح الباري جـ١/ ٢٥٨.

والمسيحيون معروفون أنهم من أهل التثليث، وأهل تأليه المسيح، لا أهل التوحيد، ومن أجل هذا، حكم القرآن عليهم بالكفر، كما في قوله تعالى: ﴿ لَقَدْ كَفَرَ الَّذِينَ قَالُوٓا۟ إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْمَسِيحُ ٱبْنُ مَرْيَمَ.. ﴾ [المائدة: ٧٢] ﴿ لَّقَدْ كَفَرَ ٱلَّذِينَ قَالُوٓا۟ إِنَّ ٱللَّهَ ثَالِثُ ثَلَٰثَةٍ وَمَا مِنْ إِلَٰهٍ إِلَّآ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ ﴾ [المائدة: ٧٣].

ولهذا كان يختم الرسول ﷺ دعوته إلى ملوك النصارى وأمرائهم بالآية الكريمة: ﴿ يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ تَعَالَوْا۟ إِلَىٰ كَلِمَةٍ سَوَآءٍۭ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ أَلَّا نَعْبُدَ إِلَّا ٱللَّهَ وَلَا نُشْرِكَ بِهِۦ شَيْـًٔا وَلَا يَتَّخِذَ بَعْضُنَا بَعْضًا أَرْبَابًا مِّن دُونِ ٱللَّهِ ۚ فَإِن تَوَلَّوْا۟ فَقُولُوا۟ ٱشْهَدُوا۟ بِأَنَّا مُسْلِمُونَ ﴿٦٤﴾ ﴾ [آل عمران: ٦٤].

ووجه القرآن إليهم هذا النداء الصريح: ﴿ يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ لَا تَغْلُوا۟ فِى دِينِكُمْ وَلَا تَقُولُوا۟ عَلَى ٱللَّهِ إِلَّا ٱلْحَقَّ ۚ إِنَّمَا ٱلْمَسِيحُ عِيسَى ٱبْنُ مَرْيَمَ رَسُولُ ٱللَّهِ وَكَلِمَتُهُۥٓ أَلْقَىٰهَآ إِلَىٰ مَرْيَمَ وَرُوحٌ مِّنْهُ ۖ فَـَٔامِنُوا۟ بِٱللَّهِ وَرُسُلِهِۦ ۖ وَلَا تَقُولُوا۟ ثَلَٰثَةٌ ۚ ٱنتَهُوا۟ خَيْرًا لَّكُمْ ۚ إِنَّمَا ٱللَّهُ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ ۖ سُبْحَٰنَهُۥٓ أَن يَكُونَ لَهُۥ وَلَدٌ ۘ لَّهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ ۗ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ وَكِيلًا ﴿١٧١﴾ ﴾ [النساء: ١٧١].

الإيمان بالرسل ركن أساسي في العقيدة:

ومن المسلمات البدهية في دين الإسلام، التي اعتبرها ركناً أساسياً من أركان الإيمان والعقيدة: الإيمان بالنبوة والوحي، والتصديق برسالات الله، وبرسله إلى خلقه، الذين بعثهم مبشرين ومنذرين، لئلا يكون للناس على الله حجة بعد الرسل.

فلا يصح إيمان مؤمن، ولا يدخل في دين الله، ولا يقبل في جماعة المؤمنين، ما لم يؤمن بكل كتاب أنزل، وبكل نبي أرسل.

وهذا أمر في غاية الوضوح في كتاب الله وسنة رسوله، لا يرتاب فيه مسلم، ولا يتردد فيه عقل، ولا يتلجلج به لسان.

يقول تعالى مبيناً حقيقة البر وأركان الإيمان، رداً على اليهود الذين آثاروا ضجة حول تحويل القبلة من بيت المقدس إلى الكعبة ﴿ لَّيْسَ ٱلْبِرَّ أَن تُوَلُّوا۟ وُجُوهَكُمْ قِبَلَ ٱلْمَشْرِقِ وَٱلْمَغْرِبِ وَلَٰكِنَّ ٱلْبِرَّ مَنْ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةِ وَٱلْكِتَٰبِ وَٱلنَّبِيِّۦنَ ﴾ [البقرة: ١٧٧].

وقال سبحانه: ﴿ ءَامَنَ ٱلرَّسُولُ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيْهِ مِن رَّبِّهِۦ وَٱلْمُؤْمِنُونَ ۚ كُلٌّ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَمَلَٰٓئِكَتِهِۦ وَكُتُبِهِۦ وَرُسُلِهِۦ لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِّن رُّسُلِهِۦ ۚ وَقَالُوا۟ سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا ۖ غُفْرَانَكَ رَبَّنَا وَإِلَيْكَ ٱلْمَصِيرُ ﴿٢٨٥﴾ ﴾ [البقرة: ٢٨٥]. فذكر الإيمان بالله وملائكته وكتبه ورسله صراحة، وأشار إلى الإيمان باليوم الآخر بقوله: ﴿ غُفْرَانَكَ رَبَّنَا وَإِلَيْكَ ٱلْمَصِيرُ ﴿٢٨٥﴾ ﴾.

وقال تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ ءَامِنُوا۟ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَٱلْكِتَٰبِ ٱلَّذِى نَزَّلَ عَلَىٰ رَسُولِهِۦ وَٱلْكِتَٰبِ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ مِن قَبْلُ ۚ وَمَن يَكْفُرْ بِٱللَّهِ وَمَلَٰٓئِكَتِهِۦ وَكُتُبِهِۦ وَرُسُلِهِۦ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَٰلًۢا بَعِيدًا ﴿١٣٦﴾ ﴾ [النساء: ١٣٦] وقد أثارت الكاتبة شبهة حول هذه الآية، ونقلت ـ لأول مرة ولآخرة مرة ـ كلاماً عن بعض المفسرين، وأن المراد بالخطاب فيها المسلمون، فهم الذين آمنوا حقاً. وأنا أسلم بهذا، ولكن أين هي من دلالة قوله تعالى: ﴿ وَمَن يَكْفُرْ بِٱللَّهِ وَمَلَٰٓئِكَتِهِۦ وَكُتُبِهِۦ وَرُسُلِهِۦ . . . إلخ ﴾ فهذه تعم الجميع مسلمين وغير مسلمين. لأن لفظة (من) ألفاظ العموم، كما هو معلوم.

ويقول تعالى: ﴿ سَابِقُوٓا۟ إِلَىٰ مَغْفِرَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا كَعَرْضِ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ أُعِدَّتْ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ بِٱللَّهِ وَرُسُلِهِۦ ۚ ﴾ [الحديد: ٢١].

وفي السنة في حديث جبريل المشهور، عندما سأله عن الإيمان قال: «الإيمان: أن تؤمن بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر، وتؤمن بالقدر».

وإنما لم يذكر القرآن الإيمان بالقدر. لإنه من جملة الإيمان بالله تعالى، فهو إيمان بمقتضى الكمال الإلٰهي، وأنه علم كل شيء وأراده قبل أن يقع، ﴿ وَلَا حَبَّةٍ فِي ظُلُمَٰتِ ٱلْأَرْضِ وَلَا رَطْبٍ وَلَا يَابِسٍ إِلَّا فِي كِتَٰبٍ مُّبِينٍ ﴿٥٩﴾ ﴾ [الأنعام: ٥٩].

المهم أن الإيمان بالرسل لا ريب فيه ولا خلاف عليه.

ولهذا ورد أن الناس يوم القيامة، يسألون سؤالين رئيسين:

أولهما: ماذا كنتم تعبدون؟

والثاني: بماذا أجبتم المرسلين؟

ويقول تعالى: ﴿ وَيَوْمَ يُنَادِيهِمْ فَيَقُولُ مَاذَآ أَجَبْتُمُ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿٦٥﴾ فَعَمِيَتْ عَلَيْهِمُ ٱلْأَنۢبَآءُ يَوْمَئِذٍ فَهُمْ لَا يَتَسَآءَلُونَ ﴿٦٦﴾ ﴾ [القصص: ٦٥ ـ ٦٦].

ولقد رد القرآن على المكذبين، الذين استبعدوا أن يرسل الله إليهم رسولاً يبشرهم وينذرهم ويهديهم إلى صراط مستقيم.

قال تعالى على لسان نوح عليه السلام: ﴿ أَوَعَجِبْتُمْ أَن جَآءَكُمْ ذِكْرٌ مِّن رَّبِّكُمْ عَلَىٰ رَجُلٍ مِّنكُمْ لِيُنذِرَكُمْ وَلِتَتَّقُوا۟ وَلَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ﴿٦٣﴾ ﴾ [الأعراف: ٦٣].

وقال عز وجل على لسان هود عليه السلام: ﴿ وَلَٰكِنِّى رَسُولٌ مِّن رَّبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٦٧﴾ أُبَلِّغُكُمْ رِسَٰلَٰتِ رَبِّى وَأَنَا۠ لَكُمْ نَاصِحٌ أَمِينٌ ﴿٦٨﴾ أَوَعَجِبْتُمْ أَن جَآءَكُمْ ذِكْرٌ مِّن رَّبِّكُمْ عَلَىٰ رَجُلٍ مِّنكُمْ لِيُنذِرَكُمْ ﴾ [الأعراف: ٦٧ ـ ٦٩].

وقال تعالى في شأن خاتم رسله محمد: ﴿ أَكَانَ لِلنَّاسِ عَجَبًا أَنْ

أَوْحَيْنَآ إِلَىٰ رَجُلٍ مِّنْهُمْ أَنْ أَنذِرِ ٱلنَّاسَ وَبَشِّرِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَنَّ لَهُمْ قَدَمَ صِدْقٍ عِندَ رَبِّهِمْ ﴾ [يونس: ٢].

وقد بين علماء المسلمين قديماً وحديثاً حاجة البشر إلى الوحي والرسالة، ومن أروع ما كتب عن ذلك في العصر الحديث: ما كتبه الإمام محمد عبده في (رسالة التوحيد).

المهم أن الإيمان برسل الله جميعاً: عقيدة إسلامية أساسية، ومن كذب رسولاً واحداً من رسل الله حقاً، فكأنما كذب المرسلين جميعاً.

وهذا ما يقرره القرآن حينما قال في سورة الشعراء: ﴿ كَذَّبَتْ قَوْمُ نُوحٍ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿١٠٥﴾ ﴾ وهم لم يكذبوا إلا نوحاً، ﴿ كَذَّبَتْ عَادٌ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿١٢٣﴾ ﴾ وهم لم يكذبوا إلا هوداً، ﴿ كَذَّبَتْ ثَمُودُ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿١٤١﴾ ﴾ وهم لم يكذبوا إلا صالحاً، وكذلك قال عن قوم لوط وقوم شعيب. وإنما نسب إليهم تكذيب المرسلين. لأنهم كذبوا واحداً منهم، فكأنهم جحدوا مبدأ الرسالة نفسه.

فمن زعم: أنه آمن بالله تعالى، ولكنه كذب رسله أو واحداً منهم ممن ثبتت رسالته، فهو كاذب في دعوى الإيمان إذ الإيمان الحق: ما جاء على لسان الرسول الصادق المؤيد بالآيات، ومن قال: أومن بواحد أو بمجموعة، ولا أومن بغيره، أو بغيرهم ممن هو مثلهم، أو أعلى منهم، فهو كاذب في دعوى إيمانه، بل القرآن يقول عن مثله: إنه الكافر حقاً.

اقرأ معي قول الله تعالى: ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَكْفُرُونَ بِٱللَّهِ وَرُسُلِهِۦ وَيُرِيدُونَ أَن يُفَرِّقُواْ بَيْنَ ٱللَّهِ وَرُسُلِهِۦ وَيَقُولُونَ نُؤْمِنُ بِبَعْضٍ وَنَكْفُرُ

بِبَعۡضٖ وَيُرِيدُونَ أَن يَتَّخِذُواْ بَيۡنَ ذَٰلِكَ سَبِيلًا ﴿١٥٠﴾ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡكَٰفِرُونَ حَقّٗاۚ وَأَعۡتَدۡنَا لِلۡكَٰفِرِينَ عَذَابٗا مُّهِينٗا ﴿١٥١﴾ ﴾ [النساء: ١٥٠ ـ ١٥١].

وهاتان الآيتان نزلتا في شأن اليهود والنصارى، فاليهود آمنوا بموسى وكفروا بعيسى ومحمد، والنصارى آمنوا بموسى وعيسى وكفروا بمحمد. والمسلمون وحدهم هم الذين آمنوا بالجميع، وبكل نبي أرسله الله، وبكل كتاب أنزله الله، كما قال تعالى: ﴿ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ بِٱللَّهِ وَرُسُلِهِۦ وَلَمۡ يُفَرِّقُواْ بَيۡنَ أَحَدٖ مِّنۡهُمۡ أُوْلَٰٓئِكَ سَوۡفَ يُؤۡتِيهِمۡ أُجُورَهُمۡۚ وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورٗا رَّحِيمٗا ﴿١٥٢﴾ ﴾ [النساء: ١٥٢].

رسالة محمد للعالمين، ومنهم اليهود والنصارى:

ومما لا ريب فيه، ولا خلاف عليه، وهو من بدهيات الإسلام المعروفة للجميع: أن رسالة محمد ﷺ رسالة للعالم كله، وليست رسالة للعرب وحدهم، الذين بعث منهم ونشأ فيهم، واليهود والنصارى جزء من هذا العالم الذي بعث محمد ليهديه من الضلالة، ويخرجه من الظلمات إلى النور.

وهذا أمر مقطوع به، ومن ضروريات دين الإسلام، والأدلة عليه أكثر من أن تحصى.

ونحن نتبرع بذكر بعض الدلائل على ذلك:

يقول تعالى مخاطباً رسوله: ﴿ وَمَآ أَرۡسَلۡنَٰكَ إِلَّا رَحۡمَةٗ لِّلۡعَٰلَمِينَ ﴾ [الأنبياء: ١٠٧].

﴿ وَمَآ أَرۡسَلۡنَٰكَ إِلَّا كَآفَّةٗ لِّلنَّاسِ بَشِيرٗا وَنَذِيرٗا ﴾ [سبأ: ٢٨].

﴿ قُلۡ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنِّي رَسُولُ ٱللَّهِ إِلَيۡكُمۡ جَمِيعًا ﴾ [الأعراف: ١٥٨].

﴿ تَبَارَكَ ٱلَّذِى نَزَّلَ ٱلْفُرْقَانَ عَلَىٰ عَبْدِهِۦ لِيَكُونَ لِلْعَـٰلَمِينَ نَذِيرًا ۝١ ﴾ [الفرقان: ١].

وفي أكثر من سورة جاء عن القرآن: ﴿ إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ لِّلْعَـٰلَمِينَ ﴾.

وجاء في ثلاث آيات من القرآن قوله تعالى: ﴿ هُوَ ٱلَّذِىٓ أَرْسَلَ رَسُولَهُۥ بِٱلْهُدَىٰ وَدِينِ ٱلْحَقِّ لِيُظْهِرَهُۥ عَلَى ٱلدِّينِ كُلِّهِۦ ﴾ [التوبة: ٣٣ والفتح: ٢٨ والصف: ٩] ومعنى هذا غلبة الإسلام على كل الأديان ومنها دين أهل الكتاب.

وأكثر من ذلك تصريح القرآن بإرسال محمد إلى أهل الكتاب خاصة، وإعلان هذه الحقيقة واضحة بارزة للعيان، يقول تعالى: ﴿ يَـٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَـٰبِ قَدْ جَآءَكُمْ رَسُولُنَا يُبَيِّنُ لَكُمْ عَلَىٰ فَتْرَةٍ مِّنَ ٱلرُّسُلِ أَن تَقُولُوا۟ مَا جَآءَنَا مِنۢ بَشِيرٍ وَلَا نَذِيرٍ ۖ فَقَدْ جَآءَكُم بَشِيرٌ وَنَذِيرٌ ۗ وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ۝١٩ ﴾ [المائدة: ١٩].

﴿ يَـٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَـٰبِ قَدْ جَآءَكُمْ رَسُولُنَا يُبَيِّنُ لَكُمْ كَثِيرًا مِّمَّا كُنتُمْ تُخْفُونَ مِنَ ٱلْكِتَـٰبِ وَيَعْفُوا۟ عَن كَثِيرٍ ۚ قَدْ جَآءَكُم مِّنَ ٱللَّهِ نُورٌ وَكِتَـٰبٌ مُّبِينٌ ۝١٥ يَهْدِى بِهِ ٱللَّهُ مَنِ ٱتَّبَعَ رِضْوَٰنَهُۥ سُبُلَ ٱلسَّلَـٰمِ وَيُخْرِجُهُم مِّنَ ٱلظُّلُمَـٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ بِإِذْنِهِۦ وَيَهْدِيهِمْ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ۝١٦ ﴾ [المائدة: ١٥ ـ ١٦].

وتتوالى آيات القرآن الكريم تدعو أهل الكتاب من اليهود والنصارى إلى الإيمان برسالة محمد ﷺ، وبما أنزل الله عليه من الكتاب، مصدقاً لما بين يديه من الكتب، ومهيمنا عليها، أي: مصححاً لها ومتمماً، وتحذرهم من التخلف عن هذا الإيمان.

يقول الله تعالى لبني إسرائيل:

﴿ يَٰبَنِيٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ٱذْكُرُواْ نِعْمَتِيَ ٱلَّتِيٓ أَنْعَمْتُ عَلَيْكُمْ وَأَوْفُواْ بِعَهْدِيٓ أُوفِ بِعَهْدِكُمْ وَإِيَّٰيَ فَٱرْهَبُونِ ۝٤٠ وَءَامِنُواْ بِمَآ أَنزَلْتُ مُصَدِّقًا لِّمَا مَعَكُمْ وَلَا تَكُونُوٓاْ أَوَّلَ كَافِرٍۭ بِهِۦ وَلَا تَشْتَرُواْ بِـَٔايَٰتِي ثَمَنًا قَلِيلًا وَإِيَّٰيَ فَٱتَّقُونِ ۝٤١ وَلَا تَلْبِسُواْ ٱلْحَقَّ بِٱلْبَٰطِلِ وَتَكْتُمُواْ ٱلْحَقَّ وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ ۝٤٢ ﴾ [البقرة: ٤٠ ـ ٤١ ـ ٤٢].

فهنا يأمرهم الله تعالى أن يؤمنوا بما أنزل الله من القرآن مصدقاً لما معهم، ولا يكونوا أول الكافرين به.

ويقول تعالى منددا بموقف اليهود من القرآن: ﴿ وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ ءَامِنُواْ بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ قَالُواْ نُؤْمِنُ بِمَآ أُنزِلَ عَلَيْنَا وَيَكْفُرُونَ بِمَا وَرَآءَهُۥ وَهُوَ ٱلْحَقُّ مُصَدِّقًا لِّمَا مَعَهُمْ ﴾ [البقرة: ٩١].

وقال تعالى مبيناً موقف بني إسرائيل من رسل الله: ﴿ وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَى ٱلْكِتَٰبَ وَقَفَّيْنَا مِنۢ بَعْدِهِۦ بِٱلرُّسُلِ ۖ وَءَاتَيْنَا عِيسَى ٱبْنَ مَرْيَمَ ٱلْبَيِّنَٰتِ وَأَيَّدْنَٰهُ بِرُوحِ ٱلْقُدُسِ ۗ أَفَكُلَّمَا جَآءَكُمْ رَسُولٌۢ بِمَا لَا تَهْوَىٰٓ أَنفُسُكُمُ ٱسْتَكْبَرْتُمْ فَفَرِيقًا كَذَّبْتُمْ وَفَرِيقًا تَقْتُلُونَ ۝٨٧ وَقَالُواْ قُلُوبُنَا غُلْفٌۢ ۚ بَل لَّعَنَهُمُ ٱللَّهُ بِكُفْرِهِمْ فَقَلِيلًا مَّا يُؤْمِنُونَ ۝٨٨ وَلَمَّا جَآءَهُمْ كِتَٰبٌ مِّنْ عِندِ ٱللَّهِ مُصَدِّقٌ لِّمَا مَعَهُمْ وَكَانُواْ مِن قَبْلُ يَسْتَفْتِحُونَ عَلَى ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ فَلَمَّا جَآءَهُم مَّا عَرَفُواْ كَفَرُواْ بِهِۦ ۚ فَلَعْنَةُ ٱللَّهِ عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ ۝٨٩ بِئْسَمَا ٱشْتَرَوْاْ بِهِۦٓ أَنفُسَهُمْ أَن يَكْفُرُواْ بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ بَغْيًا أَن يُنَزِّلَ ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦ عَلَىٰ مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦ ۖ فَبَآءُو بِغَضَبٍ عَلَىٰ غَضَبٍ ۚ وَلِلْكَٰفِرِينَ عَذَابٌ مُّهِينٌ ۝٩٠ ﴾ [البقرة: ٨٧ ـ ٩٠] فقد كان اليهود قبل البعثة المجمدية إذا تقاتلوا مع العرب يقولون لهم: قد قرب مبعث رسول من عند الله، سنؤمن به، ونقاتلكم معه، وننتصر عليكم.

ويقول تعالى: ﴿ وَلَقَدْ أَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ءَايَٰتٍۭ بَيِّنَٰتٍ ۖ وَمَا يَكْفُرُ بِهَآ إِلَّا

ٱلْفَٰسِقُونَ ﴿٩٩﴾ . . . . . وَلَمَّا جَآءَهُمْ رَسُولٌ مِّنْ عِندِ ٱللَّهِ مُصَدِّقٌ لِّمَا مَعَهُمْ نَبَذَ فَرِيقٌ مِّنَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ كِتَٰبَ ٱللَّهِ وَرَآءَ ظُهُورِهِمْ كَأَنَّهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿١٠١﴾ ﴾ [البقرة: ٩٩ - ١٠١].

وفي سورة النساء يوجه الله سبحانه وتعالى نداء صريحاً إلى أهل الكتاب أن يؤمنوا بما أنزل الله على محمد، ويهددهم بالمسخ واللعن إن لم يفعلوا. يقول تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ ءَامِنُوا۟ بِمَا نَزَّلْنَا مُصَدِّقًا لِّمَا مَعَكُم مِّن قَبْلِ أَن نَّطْمِسَ وُجُوهًا فَنَرُدَّهَا عَلَىٰٓ أَدْبَارِهَآ أَوْ نَلْعَنَهُمْ كَمَا لَعَنَّآ أَصْحَٰبَ ٱلسَّبْتِ ۚ وَكَانَ أَمْرُ ٱللَّهِ مَفْعُولًا ﴿٤٧﴾ ﴾ [النساء: ٤٧] وهذا نص واضح كالشمس في رابعة النهار.

ومن أجل ذلك أرسل النبي ﷺ رسله إلى ملوك أهل الكتاب من النصارى يحملون رسائله إليهم، يدعوهم فيها إلى الإسلام، وترك ما هم فيه من الكفر والضلال، فكما أرسل إلى كسرى ملك فارس، ورئيس المجوس الذين يعبدون النار، أرسل إلى قيصر ملك الروم - وهو المعروف باسم (هرقل) - وكذلك أرسل إلى النجاشي ملك الحبشة، وإلى المقوقس وإلى مصر من قبل الدولة الرومية، وإلى أمراء في بلاد الشام، وكلهم من أهل الكتاب من النصارى، يدعوهم أن يسلموا ليسلموا، ويؤتيهم الله أجرهم مرتين: مرة على دينهم قبل أن تبلغهم دعوة الإسلام، ومرة بدخولهم في دين الإسلام، ثم كان يختم رسائله إليهم بهذه الآية من سورة آل عمران: ﴿ قُلْ يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ تَعَالَوْا۟ إِلَىٰ كَلِمَةٍ سَوَآءٍۭ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ أَلَّا نَعْبُدَ إِلَّا ٱللَّهَ وَلَا نُشْرِكَ بِهِۦ شَيْـًٔا وَلَا يَتَّخِذَ بَعْضُنَا بَعْضًا أَرْبَابًا مِّن دُونِ ٱللَّهِ ۚ فَإِن تَوَلَّوْا۟ فَقُولُوا۟ ٱشْهَدُوا۟ بِأَنَّا مُسْلِمُونَ ﴿٦٤﴾ ﴾ [آل عمران: ٦٤].

وهذه الآية تشير بوضوح إلى أن هؤلاء النصارى قد خلطوا توحيدهم بالشرك بالله، واتخذ بعضهم بعضاً أرباباً من دون الله، فانحرفوا عن الصراط المستقيم لملة إبراهيم الحنيفية. وهذا واضح بيّن مما سجله القرآن عليهم من قولهم: إن الله ثالث ثلاثة، إن الله هو المسيح بن مريم، وإن المسيح ابن الله، ويقول تعالى: ﴿ ٱتَّخَذُوٓاْ أَحْبَارَهُمْ وَرُهْبَٰنَهُمْ أَرْبَابًا مِّن دُونِ ٱللَّهِ وَٱلْمَسِيحَ ٱبْنَ مَرْيَمَ وَمَآ أُمِرُوٓاْ إِلَّا لِيَعْبُدُوٓاْ إِلَٰهًا وَٰحِدًا ۖ لَّآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ۚ سُبْحَٰنَهُۥ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿٣١﴾ ﴾ [التوبة: ٣١].

دلائل أخرى على كفر أهل الكتاب:

ومن الدلائل الأخرى على كفر أهل الكتاب قوله تعالى: ﴿ وَلَن تَرْضَىٰ عَنكَ ٱلْيَهُودُ وَلَا ٱلنَّصَٰرَىٰ حَتَّىٰ تَتَّبِعَ مِلَّتَهُمْ ۗ ﴾ [البقرة: ١٢٠].

وهذا يدل على أن لهم ملة أخرى غير ملة الإسلام التي هي ملة إبراهيم حنيفاً، وهي التي قال الله لرسوله في شأنها: ﴿ قُلْ إِنَّنِى هَدَىٰنِى رَبِّىٓ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ دِينًا قِيَمًا مِّلَّةَ إِبْرَٰهِيمَ حَنِيفًا ۚ وَمَا كَانَ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴿١٦١﴾ ﴾ [الأنعام: ١٦١].

وقال جل شأنه: ﴿ ۞ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَتَّخِذُوا۟ ٱلْيَهُودَ وَٱلنَّصَٰرَىٰٓ أَوْلِيَآءَ ۘ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَآءُ بَعْضٍ ۚ وَمَن يَتَوَلَّهُم مِّنكُمْ فَإِنَّهُۥ مِنْهُمْ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٥١﴾ فَتَرَى ٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ يُسَٰرِعُونَ فِيهِمْ ﴾ [المائدة: ٥١ ـ ٥٢].

ومعلوم أن الله لا ينهى عن اتخاذ المؤمنين أولياء، إنما ينهى عن اتخاذ الكفار أولياء من دون المؤمنين، كما قال تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَتَّخِذُوا۟ ٱلْكَٰفِرِينَ أَوْلِيَآءَ مِن دُونِ ٱلْمُؤْمِنِينَ ۚ أَتُرِيدُونَ أَن تَجْعَلُوا۟ لِلَّهِ

عَلَيۡكُمۡ سُلۡطَٰنٗا مُّبِينًا ﴿١٤٤﴾ ﴾ [النساء: ١٤٤].

﴿ بَشِّرِ ٱلۡمُنَٰفِقِينَ بِأَنَّ لَهُمۡ عَذَابًا أَلِيمًا ﴿١٣٨﴾ ٱلَّذِينَ يَتَّخِذُونَ ٱلۡكَٰفِرِينَ أَوۡلِيَآءَ مِن دُونِ ٱلۡمُؤۡمِنِينَۚ أَيَبۡتَغُونَ عِندَهُمُ ٱلۡعِزَّةَ فَإِنَّ ٱلۡعِزَّةَ لِلَّهِ جَمِيعٗا ﴿١٣٩﴾ ﴾ [النساء: ١٣٨ ـ ١٣٩].

وفي السياق نفسه الذي نهى فيه عن اتخاذ اليهود والنصارى أولياء، يقول تعالى لرسوله: ﴿ قُلۡ يَٰٓأَهۡلَ ٱلۡكِتَٰبِ هَلۡ تَنقِمُونَ مِنَّآ إِلَّآ أَنۡ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَمَآ أُنزِلَ إِلَيۡنَا وَمَآ أُنزِلَ مِن قَبۡلُ وَأَنَّ أَكۡثَرَكُمۡ فَٰسِقُونَ ﴿٥٩﴾ قُلۡ هَلۡ أُنَبِّئُكُم بِشَرّٖ مِّن ذَٰلِكَ مَثُوبَةً عِندَ ٱللَّهِۚ مَن لَّعَنَهُ ٱللَّهُ وَغَضِبَ عَلَيۡهِ وَجَعَلَ مِنۡهُمُ ٱلۡقِرَدَةَ وَٱلۡخَنَازِيرَ وَعَبَدَ ٱلطَّٰغُوتَۚ أُوْلَٰٓئِكَ شَرّٞ مَّكَانٗا وَأَضَلُّ عَن سَوَآءِ ٱلسَّبِيلِ ﴿٦٠﴾ وَإِذَا جَآءُوكُمۡ قَالُوٓاْ ءَامَنَّا وَقَد دَّخَلُواْ بِٱلۡكُفۡرِ وَهُمۡ قَدۡ خَرَجُواْ بِهِۦۚ وَٱللَّهُ أَعۡلَمُ بِمَا كَانُواْ يَكۡتُمُونَ ﴿٦١﴾ ﴾ [المائدة: ٥٩ ـ ٦١].

ويقول سبحانه: ﴿ قُلۡ يَٰٓأَهۡلَ ٱلۡكِتَٰبِ لَسۡتُمۡ عَلَىٰ شَيۡءٍ حَتَّىٰ تُقِيمُواْ ٱلتَّوۡرَىٰةَ وَٱلۡإِنجِيلَ وَمَآ أُنزِلَ إِلَيۡكُم مِّن رَّبِّكُمۡۗ وَلَيَزِيدَنَّ كَثِيرٗا مِّنۡهُم مَّآ أُنزِلَ إِلَيۡكَ مِن رَّبِّكَ طُغۡيَٰنٗا وَكُفۡرٗاۖ فَلَا تَأۡسَ عَلَى ٱلۡقَوۡمِ ٱلۡكَٰفِرِينَ ﴿٦٨﴾ ﴾ [المائدة: ٦٨].

بين الله سبحانه أن أهل الكتاب ليسوا على شيء من الدين حتى يقيموا التوراة والإنجيل وما أنزل إليهم من ربهم، أي: القرآن العظيم.

الإيمان لا يتجزأ:

بل الإيمان يوجب على كل مؤمن أن يأخذ بدينه كله، ولا يرفض شيئاً أساسياً مقطوعاً به من دينه، وإلا فهو مرتد عن دينه، مارق منه، كما يمرق السهم من الرمية. وقد عاب القرآن على بني إسرائيل إيمانهم ببعض الكتاب وكفرهم ببعض، حين انتقدهم بشدة، موبخاً لهم على أخذهم من الدين ما يروق لهم، وإعراضهم عما لا يحلو لهم،

فأصبحوا هم الذين يتحكمون في الدين، وليس الدين هو الذي يحكمهم ويضبط مسيرتهم.

يقول تعالى: ﴿ أَفَتُؤْمِنُونَ بِبَعْضِ ٱلْكِتَٰبِ وَتَكْفُرُونَ بِبَعْضٍ فَمَا جَزَآءُ مَن يَفْعَلُ ذَٰلِكَ مِنكُمْ إِلَّا خِزْيٌ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَيَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ يُرَدُّونَ إِلَىٰٓ أَشَدِّ ٱلْعَذَابِ وَمَا ٱللَّهُ بِغَٰفِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ ﴿٨٥﴾ أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ ٱشْتَرَوُا۟ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا بِٱلْءَاخِرَةِ فَلَا يُخَفَّفُ عَنْهُمُ ٱلْعَذَابُ وَلَا هُمْ يُنصَرُونَ ﴿٨٦﴾ ﴾ [البقرة: ٨٥ ـ ٨٦].

وعلى هذا الأساس، لو أن المسلم أنكر آية واحدة من القرآن الكريم، أو سورة قصيرة من سوره مثل: الإخلاص أو العصر أو الكوثر، أو إحدى المعوذتين، فإنه يكون كافراً مرتداً، والعياذ بالله.

ولو أنكر حكماً واحداً من أحكام الإسلام القطعية، المعلومة من الدين بالضرورة، لكان كافراً مرتداً.

لهذا نُكَفِّرُ اليهود والنصارى:

فاليهود والنصارى كفار في اعتقاد المسلمين؛ لأنهم لم يؤمنوا برسالة محمد، الذي أرسل إلى الناس كافة، وإليهم خاصة، كما ذكرنا في الآيات الصريحة البينة ﴿ يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ قَدْ جَآءَكُمْ رَسُولُنَا يُبَيِّنُ لَكُمْ عَلَىٰ فَتْرَةٍ مِّنَ ٱلرُّسُلِ ﴾ [المائدة: ١٩].

وقد آمنوا ببعض الرسل وكفروا ببعض، فهم بنص القرآن الصريح: ﴿ هُمُ ٱلْكَٰفِرُونَ حَقًّا ﴾.

وهم لم يكتفوا بالكفر برسالة محمد، والإعراض عنها، بل كازوا له ومكروا به، وصدوا عن سبيله. كما قال تعالى: ﴿ يُرِيدُونَ أَن

يُطْفِئُوا نُورَ ٱللَّهِ بِأَفْوَٰهِهِمْ وَيَأْبَى ٱللَّهُ إِلَّآ أَن يُتِمَّ نُورَهُۥ وَلَوْ كَرِهَ ٱلْكَٰفِرُونَ ۝٣٢ ﴾ [التوبة: ٣٢].

واليهود والنصارى كفار؛ لأنهم حرفوا كتبهم، وبدلّوا دينهم، وقالوا على الله بغير علم، وشوهوا حقيقة الألوهية في كتبهم، ووصفوا الله بما لا يليق بجلاله وكماله، ونسبوا إليه نقص البشر، وعجز البشر، وجهل البشر، كما أنهم شوهوا صورة النبوة والأنبياء الذين جعلهم الله قدوة للبشر، وهداة لهم، فنسبوا إليهم من الرذائل ما لا ينسب لعوام الناس. وهذا ثابت في (أسفار التوراة) التي يؤمن بها اليهود والنصارى جميعاً، فكل ما يؤمن به اليهود في شأن الألوهية والنبوة يؤمن به النصارى؛ لأن التوراة المحرفة الموجودة الآن في أيديهم (كتاب مقدس) عند الطائفتين جميعاً.

ويزيد النصارى على اليهود ما انفردوا به في شأن المسيح، حيث اعتبروه إلهاً، أو ابن إله أو واحداً من ثلاثة أقانيم تكوّن (الإله). وهذا قد قرر القرآن بوضوح بيّن، وبيان واضح: أنه كُفر، كما قال تعالى في سورة المائدة، وهي من أواخر ما نزل من القرآن: ﴿ لَّقَدْ كَفَرَ ٱلَّذِينَ قَالُوٓا۟ إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْمَسِيحُ ٱبْنُ مَرْيَمَ ﴾ [في آيتين من السورة آية: ١٧ وآية: ٧٢]. وقال تعالى: ﴿ لَّقَدْ كَفَرَ ٱلَّذِينَ قَالُوٓا۟ إِنَّ ٱللَّهَ ثَالِثُ ثَلَٰثَةٍ وَمَا مِنْ إِلَٰهٍ إِلَّآ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ ﴾ [آية: ٧٣].

وفي سورة التوبة: ـ وهي من أواخر ما نزل أيضاً ـ جاء قوله تعالى:

﴿ وَقَالَتِ ٱلْيَهُودُ عُزَيْرٌ ٱبْنُ ٱللَّهِ وَقَالَتِ ٱلنَّصَٰرَى ٱلْمَسِيحُ ٱبْنُ ٱللَّهِ ذَٰلِكَ قَوْلُهُم بِأَفْوَٰهِهِمْ يُضَٰهِـُٔونَ قَوْلَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِن قَبْلُ

﴿ قَٰتَلَهُمُ ٱللَّهُۖ أَنَّىٰ يُؤْفَكُونَ ۝٣٠ ٱتَّخَذُوٓاْ أَحْبَارَهُمْ وَرُهْبَٰنَهُمْ أَرْبَابًا مِّن دُونِ ٱللَّهِ وَٱلْمَسِيحَ ٱبْنَ مَرْيَمَ وَمَآ أُمِرُوٓاْ إِلَّا لِيَعْبُدُوٓاْ إِلَٰهًا وَٰحِدًاۖ لَّآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَۚ سُبْحَٰنَهُۥ عَمَّا يُشْرِكُونَ ۝٣١ ﴾ [التوبة: ٣٠ ـ ٣١].

النصارى أبعد عن ملة إبراهيم من اليهود:

وأحب أن أنبه بعض الأخوة الذين يدافعون عن النصارى، أو عن المسيحيين كما يحبون أن يسموا أنفسهم اليوم، ويريدون أن يضفوا عليهم صفة الإيمان، ويدخلوهم في زمرة المؤمنين بإطلاق، في حين لا يصنعون ذلك مع اليهود.

وربما ضللهم عن الحقيقة سوء فهمهم لقوله تعالي: ﴿ لَتَجِدَنَّ أَشَدَّ ٱلنَّاسِ عَدَٰوَةً لِّلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱلْيَهُودَ وَٱلَّذِينَ أَشْرَكُواْۖ وَلَتَجِدَنَّ أَقْرَبَهُم مَّوَدَّةً لِّلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱلَّذِينَ قَالُوٓاْ إِنَّا نَصَٰرَىٰۚ ﴾ [المائدة: ٨٢].

فقد فهموا ـ من شدة عداوة اليهود للذين آمنوا وهم المسلمون، وقرب مودة النصارى لهم ـ أن اليهود أبعد عن ملة إبراهيم، وأعرف في الكفر ومن النصارى، مع أنه لا تلازم بين الأمرين.

فالواقع أن اليهود ـ وإن وقعوا في التشبيه والتجسيم ـ لم يؤلهوا موسى، كما أله النصارى عيسى، ولم يقعوا في التثليث، الذي سقط فيه المسيحيون.

وفي الشريعة: وجدنا اليهود يختنون أبناءهم، كما هي سنة إبراهيم، أما النصارى فلا يختنون.

ووجدنا اليهود يذبحون ما يأكلون من الحيوانات والطيور، في

حين لا يذبح النصارى، فقد قال لهم بولس: كل شيء طاهر للطاهرين.

واليهود يحرمون الخنزير والنصارى يبيحون الخنزير.

واليهود يحرمون التماثيل، والنصارى يجيزون التماثيل للمسيح الذي هو عندهم إله حق من إله حق، وللأنبياء والقديسين، ولذلك امتلأت كنائسهم بالصور والتماثيل.

تعبير أهل الكتاب لا يدل على الإيمان:

وتسمية القرآن اليهود والنصارى بـ(أهل الكتاب) لا يعني أنهم مؤمنون، بل يعني أنهم في الأصل أهل دين سماوي، فلهم مزية على غيرهم، ونحن نعلم أن القرآن استخدم في التعبير عن اليهود والنصارى عدة صيغ، بعضها صيغة مدح، وبعضها صيغة ذم، وبعضها يحتمل الأمرين. وهذا قد عرف بالتتبع والاستقراء.

والصيغة الأولى: صيغة (الذين آتيناهم الكتاب) فهذا صيغة مدح في القرآن.

والصيغة الثانية: صيغة (الذين أوتوا نصيباً من الكتاب) فهذه صيغة ذم حيثما ذكرت في القرآن.

والصيغة الثالثة: صيغة (أهل الكتاب) أو (الذين أوتوا الكتاب) فهذه تذكر في موضع المدح حيناً، وفي موضع الذم حيناً آخر.

ولا بأس بذكر ما يدل على ذلك من كتاب الله تعالى:

ففي الصيغة الأولى نجد قوله تعالى: ﴿ ٱلَّذِينَ ءَاتَيۡنَٰهُمُ ٱلۡكِتَٰبَ يَتۡلُونَهُۥ

﴿ حَقَّ تِلَاوَتِهِۦٓ أُوْلَـٰٓئِكَ يُؤْمِنُونَ بِهِۦۗ ﴾ [البقرة: ١٢١] فالمقصود بهؤلاء: من هداهم الله إلى الإيمان بمحمد ورسالته وكتابه.

ومثل ذلك قوله تعالى: ﴿ ٱلَّذِينَ ءَاتَيْنَـٰهُمُ ٱلْكِتَـٰبَ مِن قَبْلِهِۦ هُم بِهِۦ يُؤْمِنُونَ ۝٥٢ وَإِذَا يُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ قَالُوٓاْ ءَامَنَّا بِهِۦٓ إِنَّهُ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّنَآ إِنَّا كُنَّا مِن قَبْلِهِۦ مُسْلِمِينَ ﴾ [القصص: ٥٢ ـ ٥٣].

وقوله تعالى: ﴿ وَٱلَّذِينَ ءَاتَيْنَـٰهُمُ ٱلْكِتَـٰبَ يَعْلَمُونَ أَنَّهُۥ مُنَزَّلٌ مِّن رَّبِّكَ بِٱلْحَقِّۖ ﴾ [الأنعام: ١١٤].

وقوله تعالى: ﴿ وَكَذَٰلِكَ أَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ٱلْكِتَـٰبَۚ فَٱلَّذِينَ ءَاتَيْنَـٰهُمُ ٱلْكِتَـٰبَ يُؤْمِنُونَ بِهِۦۖ ﴾ [العنكبوت: ٤٧]،

إلى غير ذلك من الآيات.

وفي الصيغة الثانية نجد قوله تعالى في سورة آل عمران: ﴿ أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ أُوتُواْ نَصِيبًا مِّنَ ٱلْكِتَـٰبِ يُدْعَوْنَ إِلَىٰ كِتَـٰبِ ٱللَّهِ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ يَتَوَلَّىٰ فَرِيقٌ مِّنْهُمْ وَهُم مُّعْرِضُونَ ۝٢٣ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُواْ لَن تَمَسَّنَا ٱلنَّارُ إِلَّآ أَيَّامًا مَّعْدُودَٰتٍۖ وَغَرَّهُمْ فِى دِينِهِم مَّا كَانُواْ يَفْتَرُونَ ۝٢٤ ﴾ [الآيتان: ٢٣ ـ ٢٤] وواضح أن المراد بهم. اليهود، فهم الذين قالوا هذا القول.

وفي سورة النساء: ﴿ أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ أُوتُواْ نَصِيبًا مِّنَ ٱلْكِتَـٰبِ يُؤْمِنُونَ بِٱلْجِبْتِ وَٱلطَّـٰغُوتِ وَيَقُولُونَ لِلَّذِينَ كَفَرُواْ هَـٰٓؤُلَآءِ أَهْدَىٰ مِنَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ سَبِيلًا ۝٥١ أُوْلَـٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ لَعَنَهُمُ ٱللَّهُۖ وَمَن يَلْعَنِ ٱللَّهُ فَلَن تَجِدَ لَهُۥ نَصِيرًا ۝٥٢ ﴾ [الآيتان: ٥١ ـ ٥٢] وواضح أيضاً أن المراد بهم اليهود، كما دل السياق، ودلت أسباب النزول، حين قال مشركو مكة الوثنيون لليهود: أنحن أهدى أم محمد؟ فقالوا: بل أنتم.

وفي الصيغة الثالثة، نجد في المدح قوله تعالى: ﴿ مِّنْ أَهْلِ الْكِتَابِ أُمَّةٌ قَائِمَةٌ يَتْلُونَ آيَاتِ اللَّهِ آنَاءَ اللَّيْلِ وَهُمْ يَسْجُدُونَ (١١٣) يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ وَيُسَارِعُونَ فِي الْخَيْرَاتِ وَأُولَٰئِكَ مِنَ الصَّالِحِينَ (١١٤) ﴾ [آل عمران: ١١٣ ـ ١١٤] ولكن المدح ـ كما هو واضح ـ لجماعة منهم.

﴿ وَإِنَّ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ لَمَن يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَمَا أُنزِلَ إِلَيْكُمْ وَمَا أُنزِلَ إِلَيْهِمْ خَاشِعِينَ لِلَّهِ لَا يَشْتَرُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ ثَمَنًا قَلِيلًا ۗ أُولَٰئِكَ لَهُمْ أَجْرُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ ۗ ﴾ [آل عمران: ١٩٩] والمدح أيضاً لجماعة منهم، هم الذين آمنوا بالكتابين.

وفي الذم نجد قوله تعالى: ﴿ مَّا يَوَدُّ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ وَلَا الْمُشْرِكِينَ أَن يُنَزَّلَ عَلَيْكُم مِّنْ خَيْرٍ مِّن رَّبِّكُمْ ۗ ﴾ [البقرة: ١٠٥].

﴿ وَدَّ كَثِيرٌ مِّنْ أَهْلِ الْكِتَابِ لَوْ يَرُدُّونَكُم مِّن بَعْدِ إِيمَانِكُمْ كُفَّارًا حَسَدًا مِّنْ عِندِ أَنفُسِهِم مِّن بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمُ الْحَقُّ ۖ ﴾ [البقرة: ١٠٩].

﴿ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لِمَ تَكْفُرُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ وَأَنتُمْ تَشْهَدُونَ (٧٠) يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لِمَ تَلْبِسُونَ الْحَقَّ بِالْبَاطِلِ وَتَكْتُمُونَ الْحَقَّ وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ (٧١) ﴾ [آل عمران: ٧٠ ـ ٧١].

﴿ قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لِمَ تَكْفُرُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ وَاللَّهُ شَهِيدٌ عَلَىٰ مَا تَعْمَلُونَ (٩٨) قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لِمَ تَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ اللَّهِ مَنْ آمَنَ تَبْغُونَهَا عِوَجًا وَأَنتُمْ شُهَدَاءُ ۗ وَمَا اللَّهُ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ (٩٩) ﴾ [آل عمران: ٩٨ ـ ٩٩].

وسورة آل عمران جاء نصفها الأول في محاجة أهل الكتاب،

وخصوصاً النصارى، بعد زيارة وفد نصاري نجران للرسول ﷺ، وقد أكرم وفادتهم، وأحسن معاملتهم، حتى فرش لهم عباءته، وأدخلهم مسجده، وأذن لهم أن يصلوا فيه. ولكنه لم يحكم عليهم بأنهم مؤمنون، بل نزلت الآيات تفند شبهاتهم، وتقيم عليهم الحجة البالغة، وتبين بطلان دعاويهم في ألوهية المسيح أو بنوته لله، وجاء في ذلك قوله تعالى في السورة: ﴿ إِنَّ مَثَلَ عِيسَىٰ عِندَ ٱللَّهِ كَمَثَلِ ءَادَمَ خَلَقَهُۥ مِن تُرَابٍ ثُمَّ قَالَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ ﴿٥٩﴾ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّكَ فَلَا تَكُن مِّنَ ٱلْمُمْتَرِينَ ﴿٦٠﴾ فَمَنْ حَآجَّكَ فِيهِ مِنۢ بَعْدِ مَا جَآءَكَ مِنَ ٱلْعِلْمِ فَقُلْ تَعَالَوْا۟ نَدْعُ أَبْنَآءَنَا وَأَبْنَآءَكُمْ وَنِسَآءَنَا وَنِسَآءَكُمْ وَأَنفُسَنَا وَأَنفُسَكُمْ ثُمَّ نَبْتَهِلْ فَنَجْعَل لَّعْنَتَ ٱللَّهِ عَلَى ٱلْكَٰذِبِينَ ﴿٦١﴾ ﴾ [آل عمران: ٥٩ ـ ٦١] ﴿ فَإِن تَوَلَّوْا۟ فَإِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌۢ بِٱلْمُفْسِدِينَ ﴿٦٣﴾ قُلْ يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ تَعَالَوْا۟ إِلَىٰ كَلِمَةٍ سَوَآءٍۭ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ أَلَّا نَعْبُدَ إِلَّا ٱللَّهَ وَلَا نُشْرِكَ بِهِۦ شَيْـًٔا وَلَا يَتَّخِذَ بَعْضُنَا بَعْضًا أَرْبَابًا مِّن دُونِ ٱللَّهِ ۚ فَإِن تَوَلَّوْا۟ فَقُولُوا۟ ٱشْهَدُوا۟ بِأَنَّا مُسْلِمُونَ ﴿٦٤﴾ يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ لِمَ تُحَآجُّونَ فِىٓ إِبْرَٰهِيمَ وَمَآ أُنزِلَتِ ٱلتَّوْرَىٰةُ وَٱلْإِنجِيلُ إِلَّا مِنۢ بَعْدِهِۦٓ ۚ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴿٦٥﴾ . . ﴾ [آل عمران: ٦٣ ـ ٦٥].

وفي السورة: ﴿ ۞ وَمِنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ مَنْ إِن تَأْمَنْهُ بِقِنطَارٍ يُؤَدِّهِۦٓ إِلَيْكَ وَمِنْهُم مَّنْ إِن تَأْمَنْهُ بِدِينَارٍ لَّا يُؤَدِّهِۦٓ إِلَيْكَ إِلَّا مَا دُمْتَ عَلَيْهِ قَآئِمًا ۗ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُوا۟ لَيْسَ عَلَيْنَا فِى ٱلْأُمِّيِّۦنَ سَبِيلٌ ﴾ [آل عمران: ٧٥] وسورة آل عمران أكثر سورة ذكرت فيها كلمة (أهل الكتاب).

وأطفال المسلمين يحفظون من قصار السور: سورة البينة) وفيها يقول الله تعالى: ﴿ لَمْ يَكُنِ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ وَٱلْمُشْرِكِينَ مُنفَكِّينَ حَتَّىٰ تَأْتِيَهُمُ ٱلْبَيِّنَةُ ﴿١﴾ رَسُولٌ مِّنَ ٱللَّهِ يَتْلُوا۟ صُحُفًا مُّطَهَّرَةً ﴿٢﴾ ﴾ وفيها أيضاً: ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ وَٱلْمُشْرِكِينَ فِى نَارِ جَهَنَّمَ خَٰلِدِينَ فِيهَآ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ

هُمْ شَرُّ ٱلْبَرِيَّةِ ﴿٦﴾ ﴾ [البينة: ١ ـ ٢ ـ ٦].

نبهت الآيتان هنا، وما شابههما بأن هناك كفاراً من أهل الكتاب، وكفاراً من المشركين، وكلاهما من أهل الكفر.

ونجد نحو ذلك في صيغة ﴿ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَـٰبَ ﴾ فبعضها فيه مدح، مثل: ﴿ وَإِنَّ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَـٰبَ لَيَعْلَمُونَ أَنَّهُ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّهِمْ ﴾ [البقرة: ١٤٤].

وبعضها يحمل الذم، مثل: ﴿ وَلَئِنْ أَتَيْتَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَـٰبَ بِكُلِّ ءَايَةٍ مَّا تَبِعُوا۟ قِبْلَتَكَ ﴾ [البقرة: ١٤٥] وفيها ﴿ وَلَئِنِ ٱتَّبَعْتَ أَهْوَآءَهُم مِّنۢ بَعْدِ مَا جَآءَكَ مِنَ ٱلْعِلْمِ ۙ إِنَّكَ إِذًا لَّمِنَ ٱلظَّـٰلِمِينَ ﴿١٤٥﴾ ﴾ [البقرة: ١٤٥] ﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِن تُطِيعُوا۟ فَرِيقًا مِّنَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَـٰبَ يَرُدُّوكُم بَعْدَ إِيمَـٰنِكُمْ كَـٰفِرِينَ ﴿١٠٠﴾ ﴾ [آل عمران: ١٠٠]. ﴿ وَإِذْ أَخَذَ ٱللَّهُ مِيثَـٰقَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَـٰبَ لَتُبَيِّنُنَّهُۥ لِلنَّاسِ وَلَا تَكْتُمُونَهُۥ فَنَبَذُوهُ وَرَآءَ ظُهُورِهِمْ وَٱشْتَرَوْا۟ بِهِۦ ثَمَنًا قَلِيلًا ۖ فَبِئْسَ مَا يَشْتَرُونَ ﴿١٨٧﴾ ﴾ [آل عمران: ١٨٧].

﴿ قَـٰتِلُوا۟ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَلَا بِٱلْيَوْمِ ٱلْـَٔاخِرِ وَلَا يُحَرِّمُونَ مَا حَرَّمَ ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ وَلَا يَدِينُونَ دِينَ ٱلْحَقِّ مِنَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَـٰبَ ﴾ [التوبة: ٢٩].

خليط من الأغلاط والأوهام:

تقول الكاتبة: لقد كلف الله المؤمنين من أمة محمد ﷺ بالإيمان بالشرائع التي أوحيت إلى الإنسانية من قبل القرآن الكريم، لدخول ذلك ضمن دائرة استطاعتهم، انطلاقاً من كون القرآن ركز فيما يقارب

ثلثيه على قصص الأنبياء والرسل السابقين، خصوصاً قصص إبراهيم وموسى وعيسى عليهم السلام، والكتاب الحق الذي نزل إليهم، والتوارة والإنجيل.

أما المؤمنون أصحاب الشرائع السابقة. فمن المنطق ألا يكلفهم تعالى الإيمان بما أنزل إلى الإنسانية من شرعة بعد شرعتهم، أي: بشرعة القرآن الكريم. حيث يكون ذلك خارج دائرة استطاعتهم، انطلاقاً من كون قصص القرآن كلها وأحكامه، لم تذكر في كتبهم المقدسة، وما ذكر فيها سوى بشارة ببعثة الرسول الكريم أحمد ﷺ. . . إلخ.

أقول: هذا الكلام يشتمل على أغلاط وأوهام كثيرة، التبس على صاحبه فيه الحق بالباطل، والهدى بالضلال. نحاول إجمالها فيما يلي:

أولا: كأن الكاتبة تظمن أن أمة محمد هم العرب أو الوثنيون منهم، ناسية أن أمة محمد هم العالم كله، هم أمة الدعوة، والله تعالى يقول: ﴿ قُلْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنِّى رَسُولُ ٱللَّهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعًا ﴾[الأعراف: ١٥٨].

ثانياً: ترى الكاتبة أن الإيمان بما أنزل الله من كتب وما بعث من رسل، يخرج عن دائرة استطاعة البشر، وهي دعوى لا تستند إلى أي منطق ديني أوعقلي، أي صعوبة في أن يعتقد المرء أن الله لم يدع عباده هملا، ، ولم يتركم سدى، وإنما بعث إليهم رسله مبشرين ومنذرين، وأنزل معهم الكتاب بالحق ليحكموا بين الناس فيما اختلفوا فيه. هذا هو المطلوب من المكلفين أن يؤمنوا به، فهل في هذا صعوبة، بله الاستحالة؟!.

إن المهم هنا هو الإيمان بالمبدأ، أما أسماء الرسل، فيؤمن بما جاء به الوحي المعصوم منهم. وأما الإيمان برسالة محمد ﷺ، فهو إيمان برسالة قامت البراهين الناصعة على صدقها، وأقرب الناس إلى تصديقها هم أهل الكتاب، فقد جاء محمد مصدقاً لما بين يديه من الكتاب ومهيمناً عليه، وفي هذه الكتب السابقة من البشائر و الإشارات ما يجعل تصديقه أمراً قريباً ومعقولاً جداً؛ لأنه سيجد دينه وقد صفى وهذب وتمم، فكيف يعرض عنه؟!

فإذا كان الوثني والمجوسي والملحد، مطالباً بالإيمان بمحمد، فأولى بذلك أهل الكتاب، وقد قال تعالى: ﴿وَكَذَٰلِكَ أَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ ۚ فَٱلَّذِينَ ءَاتَيْنَٰهُمُ ٱلْكِتَٰبَ يُؤْمِنُونَ بِهِۦ﴾ [العنكبوت: ٤٧].

﴿وَٱلَّذِينَ ءَاتَيْنَٰهُمُ ٱلْكِتَٰبَ يَعْلَمُونَ أَنَّهُۥ مُنَزَّلٌ مِّن رَّبِّكَ بِٱلْحَقِّ﴾ [الأنعام: ١١٤].

ثالثاً: إن الإيمان حقيقة واحدة لاتتغير بتغير العصور؛ لأنه يتضمن الإعتقاد الجازم بحقائق ثابتة عن الله تعالى، وعن الكون المخلوق الذي نعيش فيه، وعن الإنسان المستخلف من الله في هذا الكون وعن مصيره، وعن رسالته، وعلاقته بخالقه وبنفسه وبما حوله ومن حوله.

وهذه حقائق لا تكذب ولا تتطور، فالمفروض أن يطالب المؤمنون في كل عصر بالإيمان بهذه الحقائق.

رابعاً: كيف يكون من المنطقي ألا يكلف أصحاب الكتب والشرائع السابقة اتباع شرعة القرآن، والله تعالى لم يتكفل بحفظ كتبهم، بل استحفظها أهلها، ولهذا حرفت تلك الكتب وبُدِّلت،

وذلك؛ لأن هذه الشرائع كانت محدودة في المكان وفي الزمان، فكل هؤلاء الرسل بعثوا إلى أقوامهم، لا إلى الناس كافة، وبعثوا لهم في فترة معينة، لا برسالة خاتمة ولا خالدة، بل كل منهم بشَّر بنبي يأتي بعده.

استدلال بما يدل على عكسه:

تقول الكاتبة: إن القرآن يدعو كل أمة للعمل بما جاء في شرعتها من مبادىء وأحكام وفرائض، إن كانت راغبة عن شرعة القرآن الكريم.

وكأنها تعتبر العمل بشرعة القرآن أمراً تطوعياً أو اختيارياً.

وقد استدلت على دعواها بما ينقضها، لا بما يؤيدها. فذكرت قول الله تعالى لرسوله: ﴿ وَأَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ٱلْكِتَـٰبَ بِٱلْحَقِّ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ ٱلْكِتَـٰبِ وَمُهَيْمِنًا عَلَيْهِ ۖ فَٱحْكُم بَيْنَهُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ ۖ وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَآءَهُمْ عَمَّا جَآءَكَ مِنَ ٱلْحَقِّ ۚ لِكُلٍّ جَعَلْنَا مِنكُمْ شِرْعَةً وَمِنْهَاجًا ﴾[المائدة: ٤٨].

(أ) فهذه الآية تقرر أن القرآن مهمين على ما سبقه من الكتب، فهو يحكمها ولاتحكمه، وهو الذي يصحح ما دخلها من أغلاط البشر، وأهواء البشر.

(ب) ثم هي تأمر النبي ﷺ أن يحكم بينهم بما أنزل الله، أي بحكم القرآن الذي حفظه الله من التحريف والتبديل.

(جـ) وهي بعد ذلك تحذره من أن يتبع أهواءهم، ويدع هدى الله سبحانه.

(د) وقد أكد هذه الآية آية تالية بعدها تقول: ﴿ وَأَنِ ٱحْكُم بَيْنَهُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَآءَهُمْ وَٱحْذَرْهُمْ أَن يَفْتِنُوكَ عَنۢ بَعْضِ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ إِلَيْكَ ۖ فَإِن تَوَلَّوْا۟ فَٱعْلَمْ أَنَّمَا يُرِيدُ ٱللَّهُ أَن يُصِيبَهُم بِبَعْضِ ذُنُوبِهِمْ ۗ وَإِنَّ كَثِيرًا مِّنَ ٱلنَّاسِ لَفَٰسِقُونَ ﴿٤٩﴾ أَفَحُكْمَ ٱلْجَٰهِلِيَّةِ يَبْغُونَ ۚ وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ ٱللَّهِ حُكْمًا لِّقَوْمٍ يُوقِنُونَ ﴿٥٠﴾ ﴾[المائدة: ٤٩ـ ٥٠].

وتستدل الكاتبة أيضاً على دعواها بقول الله تعالى: ﴿ قُلْ يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ لَسْتُمْ عَلَىٰ شَىْءٍ حَتَّىٰ تُقِيمُوا۟ ٱلتَّوْرَىٰةَ وَٱلْإِنجِيلَ وَمَآ أُنزِلَ إِلَيْكُم مِّن رَّبِّكُمْ ۗ وَلَيَزِيدَنَّ كَثِيرًا مِّنْهُم مَّآ أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ طُغْيَٰنًا وَكُفْرًا ۖ فَلَا تَأْسَ عَلَى ٱلْقَوْمِ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٦٨﴾ ﴾[المائدة: ٦٨].

تقول: تطلب الآية من أهل الكتاب إقامة التوراة والإنجيل، وألا يزيدوا على أحكامها، أي: الحكم بما جاء إليهم فيهما، إن كانوا راغبين عن اتباع شرعة القرآن الكريم التي أنزلت على محمد ﷺ.

وأقول متعجباً: كيف أغفلت الكاتبة هذه الفقرة الواضحة في الآية، وهي قوله تعالى: بعد التوراة والإنجيل: ﴿وَمَآ أُنزِلَ إِلَيْكُم مِّن رَّبِّكُمْ ﴾ أي القرآن الكريم فليسوا على شيء من الدين يعتد به إذا لم يقيموا ما بقى من أحكام التوراة والإنجيل وما أنزل الله من أحكام القرآن مصدقاً ومصححاً ومتمماً.

ولا يقال: كيف يكون القرآن منزلاً إليهم، وإنما أنزل إلى أمة محمد؟ ونقول: هم من أمة محمد ﷺ، أعني: أمة الدعوة لا أمة الإجابة، كما هو معروف عند علماء المسلمين من قديم. لأن محمداً مبعوث إلى الناس كافة وهو منهم، فهم مخاطبون بقوله تعالى:

﴿ ٱتَّبِعُواْ مَآ أُنزِلَ إِلَيۡكُم مِّن رَّبِّكُمۡ وَلَا تَتَّبِعُواْ مِن دُونِهِۦٓ أَوۡلِيَآءَۗ قَلِيلٗا مَّا تَذَكَّرُونَ ۝٣ ﴾[الأعرف: ٣].

فهذه آيات محكمات صريحات الدلالة، لا يجوز أن تعرض عنها وتتعلق بآيات متشابهات معروفة عند أهل العلم المراد منها مثل قوله تعالى: ﴿ وَكَيۡفَ يُحَكِّمُونَكَ وَعِندَهُمُ ٱلتَّوۡرَىٰةُ فِيهَا حُكۡمُ ٱللَّهِ ثُمَّ يَتَوَلَّوۡنَ مِنۢ بَعۡدِ ذَٰلِكَۚ وَمَآ أُوْلَٰٓئِكَ بِٱلۡمُؤۡمِنِينَ ۝٤٣ ﴾[المائدة: ٤٣].

المسيحيون والتثليث:

تريد الكاتبة: أن تبرىء المسيحيين من تأليه المسيح، ومما هو معروف عندهم من عقيدة التثليث، والقول بأن المسيح ابن الله، وتدلل على ذلك بثلاثة أدلة:

١ ـ قول الوصية الأولى من الوصايا العشر: (أنا هو الرب إلهك، لا يكن لك إله غيري).

وهذه حجة عليهم لا حجة لهم. لأنهم تركوها وراءهم ظهرياً، اتخذوا آلهة أخرى من خلقه.

٢ ـ تقول: إذا كان المسيحيون يصفون السيد المسيح بـ(ابن الله) فإنهم يصفون المؤمنين جميعاً بأبناء الله، كما في قول إنجيل متى: (طوبى لصانعي السلام؛ لأنهم أبناء الله يدعون) ونحن نقر هذا، ولكنهم لا يعترفون بأن المسيح كسائر الناس، إنه (الرب) إنه إله حق من إله حق. ومن المصطلحات المعروفة المكرورة عندهم: الإله الأب، والإله الابن.

فهل تكون الكاتبة ملكية أكثر من الملك، أو تقوّل المسيحيين ما لا يقولونه؟.

تحريف الإنجيل وتبعة المسيحيين المعاصرين:

٣ ـ تقول الكاتبة: إذا سلمنا جدلاً!! أن الأناجيل محرفة، فإنه يمتنع على عدل الله المطلق أن يعاقب المسيحي اليوم بما اقترف آباؤه وأجداده من تحريف للكتب في قديم الزمان. حيث لا تزر وازرة وزر أخرى.

وأنا أعجب من قول الكاتبة: إذا سلمنا جدلا، كأنها تنكر ذلك، وقد أثبت المسلمون من قرون مضت تحريف التوراة و الإنجيل، وكذلك في العصر الحديث، عما يتجلى ذلك في الكتاب العلمي القيم (إظهار الحق) للشيخ رحمه الله الهندي، وكما وضح ذلك في مناظرات وكتابات أحمد ديدات، كما أن الباحثين المحايدين من االغربيين أنفسهم قد كتبوا في ذلك كتابات كثيرة لها وزنها.

ويكفي أن الإنجيل الذي أنزل الله على عيسى لا يوجد الآن، إنما توجد سير له مشتملة على بعض مواعظه، كتبها بعض تلاميذه أو تلاميذ تلاميذه، أعني: الأناجيل الأربعة المعروفة حالياً، والمعروفة بأسماء مؤلفيها: متى ومرقس ولوقا ويوحنا. والتي لا توجد نسخها بلغتها الأولى التي كتبت بها، إنما توجد ترجمات لها، وهذه الأربعة اختيرت من بين سبعين إنجيلا، وأحرقت الأخرى. كما هو معروف في تاريخ المسيحية.

على كل خال لندع ذلك، ولنبحث في عدل الله في تحميل الميسحي وزر آبائه الذين حرفوا الكلم عن مواضعه، أقول: هذا بالمنطق المسيحي مقبول. فهم يحملون البشرية جمعاء وزر معصية أبيهم الأول آدم ـ حين أكل من الشجرة ـ ومع أن هذا حدث منذ ألوف

السنين التي لا يعلمها إلا الله، ولا شهدها هو ولا آباؤه، ولا أجداده.
ومع هذا قال المسيحيون: إن كل آدمي يولد وفي عنقه خطيئة أبيه آدم!.

أما بمنطق الإسلام فلا يحمل أحد وزر غيره، إلا أن يرضى عن ذنبه أو يتبناه أو يدافع عنه، أو يستمر في طريقه، ففي هذه الحالة يتحمل وزر نفسه، وإن كان امتداداً لعمل غيره ممن سبقه.

وعلى ضوء هذا نجد القرآن يخاطب بني اسرائيل في أيام الرسول، ويحملهم آثام أجدادهم، ويخاطبهم كأنهم هم الذين اقترفوها، لأنهم رضوها، بل مضوا على سنة آبائهم، وافتخروا بهم، وعظموهم، فكان لا بد أن يبوؤوا بإثمهم. يقول تعالى: ﴿ وَإِذْ وَٰعَدْنَا مُوسَىٰٓ أَرْبَعِينَ لَيْلَةً ثُمَّ ٱتَّخَذْتُمُ ٱلْعِجْلَ مِنۢ بَعْدِهِۦ وَأَنتُمْ ظَٰلِمُونَ . . . وَإِذْ قُلْتُمْ يَٰمُوسَىٰ لَن نُّؤْمِنَ لَكَ حَتَّىٰ نَرَى ٱللَّهَ جَهْرَةً فَأَخَذَتْكُمُ ٱلصَّٰعِقَةُ وَأَنتُمْ تَنظُرُونَ ﴿٥٥﴾ ﴾ [البقرة: ٥١ ـ ٥٥].
إلى آخر الآيات، التي تحملهم جرم آبائهم. لأنهم على آثارهم مقتدون.

موقف الإسلام من أهل الكتاب والمشركين:

تقول الكاتبة: عندما يصدر الفقه الإسلامي حكماً عاماً بالكفر أو بالشرك بالله على أهل الكتاب جميعاً، فإن هذا يجعلهم في مرتبة واحدة مع الكفار والمشركين، حيث لا ينفع في دين الإسلام منح منزلة خاصة لأمة ما، مع فسدان عقيدتها. مما يعطي التبرير الكافي لأعمال التشدد والعنف، والإقتتال الطائفي ضد إخواننا المسيحيين. حيث يطبق عليهم قصار النظر من المسلمين قوله تعالى: ﴿ فَإِذَا ٱنسَلَخَ ٱلْأَشْهُرُ

ٱلْحُرُمُ فَٱقْتُلُوا۟ ٱلْمُشْرِكِينَ حَيْثُ وَجَدتُّمُوهُمْ وَخُذُوهُمْ وَٱحْصُرُوهُمْ وَٱقْعُدُوا۟ لَهُمْ كُلَّ مَرْصَدٍ ۚ فَإِن تَابُوا۟ وَأَقَامُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَوُا۟ ٱلزَّكَوٰةَ فَخَلُّوا۟ سَبِيلَهُمْ ۚ . . . الآية﴾ [التوبة: ٥].

ونقول للكاتبة: ليس علماء الفقه الإسلامي هم الذين أصدروا هذا الحكم على أهل الكتاب بالكفر، بل أصدره الله سبحانه في آيات كتابه، وعلى لسان رسوله ﷺ، ولذا أجمع عليه علماء الفقه، وعلماء التوحيد، وعلماء التفسير، وعلماء الحديث، وكل علماء الأمة في شتى الاختصاصات.

وقد ترتب على هذا الحكم الأصلي فروع كثيرة، كما في الميراث حيث لا يرث المسلم الكافر، ولا الكافر المسلم. فلا يرث اليهودي والنصراني من المسلم، ولا العكس، وكذلك في الشهادة وفي الجنايات (يقتل مسلم بكافر) ـ كما أخذ بظاهره جمهور الفقهاء ـ وغيرها.

وهذا لا يعني أنهم في مرتبة واحدة مع (المشركين) الذين ذكرهم القرآن، وعنى بهم (الوثنيين) من العرب وأمثالهم، وهم الذين نزلت فيهم آية سورة التوبة ﴿ فَإِذَا ٱنسَلَخَ ٱلْأَشْهُرُ ٱلْحُرُمُ﴾ [التوبة: ٥].

فإن القرآن حرم نكاح المشركات، وأجاز نكاح الكتابيات، وهذه قمة في التسامح مع المخالفين في العقيدة لم يرق إليها دين من الأديان.

كما أمر القرآن بجدالهم بالتي هي أحين، كما قال تعالى: ﴿۞ وَلَا تُجَٰدِلُوٓا۟ أَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ إِلَّا بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ إِلَّا ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ مِنْهُمْ ۖ﴾ [العنكبوت: ٤٦].

ثم إن الكفار ـ حتى المشركين منهم ـ ليسوا في موقف واحد مع

الإسلام، فمنهم المسللون، ومنعم المحاربون. وحسب موقفهم من الإسلام والمسلمين، يتحدد موقف الإسلام منهم. وهذا قد وضّحته آيتان في كتاب الله تعالى، تعتبران بمثابة الدستور في معاملة غير المسلمين، يقول تبارك وتعالى: ﴿ لَا يَنْهَىٰكُمُ اللَّهُ عَنِ الَّذِينَ لَمْ يُقَٰتِلُوكُمْ فِي الدِّينِ وَلَمْ يُخْرِجُوكُم مِّن دِيَٰرِكُمْ أَن تَبَرُّوهُمْ وَتُقْسِطُوٓاْ إِلَيْهِمْ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ ۞ إِنَّمَا يَنْهَىٰكُمُ اللَّهُ عَنِ الَّذِينَ قَٰتَلُوكُمْ فِي الدِّينِ وَأَخْرَجُوكُم مِّن دِيَٰرِكُمْ وَظَٰهَرُواْ عَلَىٰٓ إِخْرَاجِكُمْ أَن تَوَلَّوْهُمْ وَمَن يَتَوَلَّهُمْ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ الظَّٰلِمُونَ ۞ ﴾ [الممتحنة: ٨ ـ ٩].

قد بين الله تعالى هنا أنه لم ينه عن البر بالمخالفين في الدين وإقامة القسط ـ وهو العدل ـ معهم، وإن كانوا مشركين، كالذين نزلت فيهم آيتا سورة الممتحنة. وقد استخدم القرآن لفظة (البر) وهي الكلمة التي تستخدم في أعظم الحقوق بعد حق الله، وهو حق الوالدين، فيقال: بر الوالدين. وهذا يرد على قول الكاتبة: لا ينفع في دين الإسلام منح منزلة خاصة لأمة ما، مع فساد عقيدتها.

وسيأتي مزيد بيان لأسس التسامح الإسلامي مع المخالفين، مع اعتقاد المسلم بطلان دينهم وفساد عقيدتهم.

وقد رأينا كثيرين من المسلمين وتزوجوا مسيحيات وبقين على دينهن، وعشن في كرامة وقرة عين مع أزواجهم من المسلمين.

ومفهوم ما ذكرته الكاتبة: أنها تبرر التشدد والعنف مع المشركين والوثنيين ولا تجيزهُ مع أهل الكتاب وحدهم! ونحن لا نجيز العنف مع أحد، إلا بشروطه وضوابطه، ولو كان وثنياً مشركاً.

الفقه الإسلامي وإباحة الزواج بالكتابيات:

تقول الكاتبة: يواجه الفقه الإسلامي إشكالية حقيقية، حين يعتبر اليهود والنصارى كفاراً أو مشركين بالله على وجه العموم، في الوقت الذي يبيح فيه زواج المسلم من نسائهم. إذ كيف يصح هذا مع تحريم زواج المسلمين من الكفار والمشركين والمشركات في قوله تعالى: ﴿وَلَا تَنكِحُوا الْمُشْرِكَاتِ حَتَّىٰ يُؤْمِنَّ ۚ وَلَأَمَةٌ مُّؤْمِنَةٌ خَيْرٌ مِّن مُّشْرِكَةٍ وَلَوْ أَعْجَبَتْكُمْ ۗ وَلَا تُنكِحُوا الْمُشْرِكِينَ حَتَّىٰ يُؤْمِنُوا ۚ وَلَعَبْدٌ مُّؤْمِنٌ خَيْرٌ مِّن مُّشْرِكٍ وَلَوْ أَعْجَبَكُمْ ۗ أُولَٰئِكَ يَدْعُونَ إِلَى النَّارِ ۖ وَاللَّهُ يَدْعُو إِلَى الْجَنَّةِ وَالْمَغْفِرَةِ بِإِذْنِهِ ۖ وَيُبَيِّنُ آيَاتِهِ لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ (٢٢١)﴾ [البقرة: ٢٢١].

ونقول للكاتبة: إن الفقه لم يواجه أي إشكالية فيما ذكرت. فالقرآن حرم زواج (المشركات) ولم يحرم زواج الكتابيات وإن كن كافرات، ولورجعت الكاتبة إلى القرآن ذاته لوجدته يعبر عن (عباد الأوثان) بالمشركين والمشركات، والذين أشركوا، وهذا وضح في مثل قوله تعالى: ﴿مَّا يَوَدُّ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ وَلَا الْمُشْرِكِينَ أَن يُنَزَّلَ عَلَيْكُم مِّنْ خَيْرٍ مِّن رَّبِّكُمْ﴾ [البقرة: ١٠٥].

وقوله تعالى: ﴿لَمْ يَكُنِ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ وَالْمُشْرِكِينَ مُنفَكِّينَ حَتَّىٰ تَأْتِيَهُمُ الْبَيِّنَةُ (١)﴾ [البينة: ١].

وقوله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ وَالْمُشْرِكِينَ فِي نَارِ جَهَنَّمَ خَالِدِينَ فِيهَا ۚ أُولَٰئِكَ هُمْ شَرُّ الْبَرِيَّةِ (٦)﴾ [البينة: ٦].

فقد دل عطف المشركين على الذين كفروا من أهل الكتاب أن المشركين صنف آخر غيرهم، إذ العطف ـ كما هو معلوم ـ يقتضي المغايرة بين المعطوف والمعطوف عليه.

وقال تعالى: ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَٱلَّذِينَ هَادُواْ وَٱلصَّـٰبِـِٔينَ وَٱلنَّصَـٰرَىٰ وَٱلْمَجُوسَ وَٱلَّذِينَ أَشْرَكُوٓاْ إِنَّ ٱللَّهَ يَفْصِلُ بَيْنَهُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ ﴾ [الحج: ١٧] ذكرت الآية مع الذين آمنوا أصحاب الملل المختلفة، من اليهود والنصارى من أهل الكتاب، والمجوس عباد النار والذين أشركوا عباد الأوثان. فدلت على أن الذين أشركوا صنف آخر غير اليهود والنصارى.

وإباحة الإسلام زواج المسلم من كتابية - مع أنه يعتقد كفرها - يعتبر قمة في التسامح مع المخالفين، ونقلة نوعية في التعامل معهم، وهذا هو الرائع حقاً: أن يتزوج المسلم من مسيحية، وإن كان يؤمن أن عقيدتها في التثليث وتأليه المسيح وغيرها: باطلة، وأن من اعتقدها فهو كافر، ومع هذا يتخذها شريكة حياته، وربة بيته، وأم أولاده ويسكن إليها، ويكون بينهما مودة ورحمة، كما شرع الله عز وجل. ثم يترتب على ذلك الزواج قرابة المصاهرة وآثارها حيث يكون أهل الزوجة أحماء زوجها، و أبوها جد أولاده، وأمها جدتهم، وأخوها خالهم، وأختها خالتهم، هؤلاء لهم حقوق ذوي القربى، وأولي الأرحام.

هذا ما عليه جماهير المسلمين منذ عهد الصحابة، ولم يخالف في ذلك إلا عبد الله بن عمر، الذي أنكر زواج المسيحية، واعتبرها مشركة، وقال: وأي شرك أكبر من أن تقول: إن ربها عيسى، وهو عبد من عباد الله؟!

حقائق يجب التنبيه عليها:

وأود أن أنبه هنا على جملة حقائق قد يغفل عنها بعض الناس، وهي من الأهمية بمكان.

كفر أهل الكتاب ليس كفر إلحاد:

الأولى: أن الكفر الذي ننسبه إلى أهل الكتاب ليس هو كفر الجحود بالألوهية، فكفرهم ليس كفر إلحاد، ككفر الشيوعيين، والماديين بصفة عامة، الذين ينكرون كل ما وراء الحس، وما وراء المادة، ولا يؤمنون بأي غيب. وذلك أنهم يؤمنون بالله في الجملة، أي وإن كان في إيمانهم به شوائب تنكرها العقيدة الإسلامية، كما أنهم يؤمنون بالوحي والنبوة في الجملة أيضاً، وإن كفروا بنبوة محمد عليه الصلاة والسلام، وأساؤوا إلى صورة الأنبياء في كتبهم، وكذلك يؤمنون بالآخرة والجزاء الإلهي فيها، وإن دخل على هذه العقيدة ما دخل عليها مما لا يوافق عليه الإسلام.

وهذا هو الذي جعل لأهل الكتاب منزلة خاصة في الإسلام دون غيرهم من أصحاب الملل والوثنية والوضعية، وأجاز الإسلام مؤاكلتهم ومصاهرتهم، وهذه قمة في التسامح لم يصل إليها دين من الأديان.

ومن أجل هذا نزلت الآيات الأولى في سورة الروم تبين أن الروم ـ وهم نصارى ـ أقرب إلى المسلمين من الفرس، وهم مجوس يعبدون النار. فقال تعالى: ﴿الٓمٓ ۝١ غُلِبَتِ ٱلرُّومُ ۝٢ فِيٓ أَدۡنَى ٱلۡأَرۡضِ وَهُم مِّنۢ بَعۡدِ غَلَبِهِمۡ سَيَغۡلِبُونَ ۝٣ فِي بِضۡعِ سِنِينَۗ لِلَّهِ ٱلۡأَمۡرُ مِن قَبۡلُ وَمِنۢ بَعۡدُۚ وَيَوۡمَئِذٖ يَفۡرَحُ ٱلۡمُؤۡمِنُونَ ۝٤ بِنَصۡرِ ٱللَّهِۚ﴾[الروم: ١ ـ٥].

ومن أجل ذلك رحبنا بالدعوة إلى الحوار بين الأديان الكتابية، لوجود أرضية مشتركة يمكن أن تجمع بينهم، وتجعل منهم كتلة ضد الإلحاد وضد الإباحية، والانسلاخ من الإيمان والفضائل.

مخاطبة اليهود والنصارى بأهل الكتاب:

الحقيقة الثانية: أننا وإن قلنا: أن اليهود والنصارى كفار بديننا، فلا يجوز أن نناديهم بـ (يا أيها الكفار والكاقرون) لأن القرآن الكريم لم يناد أي طائفة من طوائف المشركين ولا غيرهم بوصف المشرك أو الكفر، بل يقول في نداء المشركين: (يا أيها الناس) أو (يا بني آدم) أو نحو ذلك.

كما ينادي اليهود والنصارى بهذا النداء الذي يقرب بين القلوب ولا يباعدها (يأهل الكتاب).

ولم يجىء (يأيها الذين كفروا) إلا في آية واحدة في سورة التحريم، حيث ينادي به الكفار بعد دخولهم النار والعياذ بالله، يقال لهم: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَا تَعۡتَذِرُواْ ٱلۡيَوۡمَۖ إِنَّمَا تُجۡزَوۡنَ مَا كُنتُمۡ تَعۡمَلُونَ ۝٧ ﴾ [التحريم: ٧].

وجاءت آية وتحدة تخاطب الرسول بقوله: ﴿ قُلۡ يَٰٓأَيُّهَا ٱلۡكَٰفِرُونَ ۝١ لَآ أَعۡبُدُ مَا تَعۡبُدُونَ ۝٢ ﴾ [الكافرون: ١ ـ٢] وكان لها مناسبة أراد الله تعالى بها أن تكون حاسمة في سد الباب أمام المشركين، وقطع أطماعهم في استجابة الرسول لهم: أن يعبد آلهتهم فترة من الزمن ويعبدوا إلهه فترة مماثلة، فاستخدم هذه اللفظة في تلك المرة ولم تتكرر بعد ذلك في القرآن مكية أو مدنية.

أساس التسامح الإسلامي:

والحقيقة الثالثة، هي كيف نوفق بين اعتقادنا بكفر أهل الكتاب ودعوتنا إلى التسامح معهم؟.

وأقول هنا: أن كل ذي دين، بل كل ذي مبدأ: يؤمن بأنه على الحق، وأن من عداه على الباطل، أي كما قال القرآن: ﴿فَمَن يَكْفُرْ بِالطَّاغُوتِ وَيُؤْمِن بِاللَّهِ فَقَدِ اسْتَمْسَكَ بِالْعُرْوَةِ الْوُثْقَىٰ﴾ [البقرة: ٢٥٦] فهو يؤمن بدينه ومبدئه، ويكفر بما سواه وإلا كان إيمانه مدخولاً.

فمن آمن بالمادية كفر بالألوهية، ومن آمن بالألوهية كفر بالمادية، ومن آمن بالرأسمالية، كفر بالشيوعية، ومن آمن بالشيوعية كفر بالرأسمالية. ومن آمن بالديمقراطية كفر بالدكتاتورية، والعكس بالعكس.

ومن هنا نجد الميسحي يؤمن حسب عقيدته بأن المسلمين كفار لا يعني أنهم كفار بالله، بل كفار بعقيدته المسيحية بما فيها من التثليث وغيره.

وهذا صحيح، وإذا لم يعتقدوا ذلك في المسلمين كانوا كاذبين في دينهم، أو مجاملين للمسلمين.

وكذلك يعتقد المسلم في النصارى والمسيحيين بأنهم كفار، ولا يعني هذا أنهم ملحدون، بل كفار بعقيدة الإسلام، وبرسالة محمد.

ولأن المسيحيين يعتبرون المسلمين كفاراً وضالين، يبذلون جهوداً جبارة من أجل تنصيرهم، وإخراجهم من ضلالتهم، ولا يجهل أحد الجهود التنصيرية ـ أو التبشيرية كما يسمونها ـ التي بدأت مع عصر الاستعمار، وسارت في ركابه وتمتعت بحمايته، في البلاد الإسلامية المختلفة في آسيا وإفريقيا، حتى إنهم عملوا لتنصير إندونيسيا ـ أكبر بلد إسلامي ـ في مدة خمسين سنة ووضعوا لذلك

خططهم، و كثفوا نشاطهم. ولكن الله تعالى خيب سعيهم، وأبطل كيدهم، وإن حققوا بعض النجاح.

ولا زالو إلى اليوم يعملون وينفقون ويحاولون، وقد تابعنا مؤتمر المبشرين الأمريكان الذي عقد في ولاية (كلورادو) بأمريكا سنة ١٩٧٨، تحت عنوان (تنصير المسلمين في العالم) وقدم أربعين دراسة في ذلك، وأنشأ معهداً لذلك سموه: (معهد زويمر) ورصدوا لذلك ألف مليون دولار.

ونحن لا نلومهم لاعتبارنا كفاراً ضالين؛ لأن هذا طبيعة كل دين، كما قلنا: أن يعتقد المؤمن به أنه وحده على الهدى، وأن غيره على الضلال، إلا إذا نافق أو جامل.

كيف يتسامح المسلم مع من يعتقد كفره؟:

وهنا يتبادر سؤال مهم يحتاج إلى جواب .

وهو: كيف حل الإسلام هذه العقدة؟ أعني كيف يتسامح المسلم مع من يعتقد أنه كافر في دينه؟

هنا تتجلى حكمة الإسلام وعظمته في معاملة غير المسلم برغم اعتقاد المسلم بكفره، وهذا ما بينته من قديم في كتابي (غير المسلم في المجتمع الإسلامي) تحت عنوان (أساس التسامح الإسلامي).

مفاهيم إسلامية للتسامح مع المخالفين:

ولب هذا التسامح: أن الإسلام زود المسلم بفلسفة معينة أو بمفاهيم فكرية تزيح من صدره النفور والغضب والضيق بغير

المسلمين، وتفتح له باب حسن العشرة معهم والبر بهم، والإقساط إليهم، فإن الله يحب المقسطين.

أهم هذه المفاهيم هي:

١ ـ اعتقاد كل مسلم بكرامة الإنسان، أيا كان دينه أو جنسه أو لونه. قال تعالى: ﴿ ۞ وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِيٓ ءَادَمَ ﴾ [الإسراء: ٧٠] وهذه الكرامة المقررة توجب لكل إنسان حق الأحترام والرعاية.

ومن الأمثلة العلمية ما رواه البخاري عن جابر بن عبد الله: أن جنازة مرت على النبي ﷺ فقام لها واقفاً، فقيل له: يا رسول الله إنها جنازة يهودي! فقال: «أليست نفساً؟!» بلى ولكل نفس في الإسلام حرمة ومكان، فما أروع الموقف، وما أروع التفسير والتعليل!

٢ ـ اعتقاد المسلم أن اختلاف الناس في الدين واقع بمشيئة الله تعالى، والذي منح هذا النوع من خلقه الحرية والأختيار فيما يفعل ويدع ﴿ فَمَن شَآءَ فَلْيُؤْمِن وَمَن شَآءَ فَلْيَكْفُرْ ﴾ [الكهف: ٢٩] ﴿ وَلَوْ شَآءَ رَبُّكَ لَجَعَلَ ٱلنَّاسَ أُمَّةً وَٰحِدَةً وَلَا يَزَالُونَ مُخْتَلِفِينَ ۝ إِلَّا مَن رَّحِمَ رَبُّكَ وَلِذَٰلِكَ خَلَقَهُمْ ﴾ [هود: ١١٨ ـ١١٩] قال المفسرون: أي وللاختلاف خلقهم لأنه منحهم العقل والإرادة، . فاقتضت مشيئته أن يختلفوا.

والمسلم يوقن أن مشيئة الله لا راد لها ولا معقب كما أنه لا يشاء إلا ما فيه الخير والحكمة، علم الناس ذلك أو جهلوه. ولهذا لا يفكّر المسلم يوماً أن يجبر الناس ليصيروا كلهم مسلمين، كيف وقد قال الله تعالى لرسوله الكريم: ﴿ وَلَوْ شَآءَ رَبُّكَ لَأٓمَنَ مَن فِي ٱلْأَرْضِ كُلُّهُمْ جَمِيعًاۚ أَفَأَنتَ تُكْرِهُ ٱلنَّاسَ حَتَّىٰ يَكُونُواْ مُؤْمِنِينَ ۝ ﴾ [يونس: ٩٩].

٣ ـ ليس المسلم مكلفاً أن يحاسب الكافرين على كفرهم، أو يعاقب الضالين على ضلالهم، فهذا ليس إليه، وليس موعده هذه الدنيا، إنما حسابهم إلى الله في يوم الحساب، وجزاؤهم متروك إليه في يومن الدين. قال تعالى: ﴿وَإِن جَـٰدَلُوكَ فَقُلِ ٱللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا تَعْمَلُونَ ﴿٦٨﴾ ٱللَّهُ يَحْكُمُ بَيْنَكُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ فِيمَا كُنتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ ﴿٦٩﴾﴾ [الحج: ٦٨ ـ ٦٩] وقال يخاطب رسوله في شأن أهل الكتاب: ﴿فَلِذَٰلِكَ فَٱدْعُ وَٱسْتَقِمْ كَمَآ أُمِرْتَ وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَآءَهُمْ وَقُلْ ءَامَنتُ بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ مِن كِتَـٰبٍ وَأُمِرْتُ لِأَعْدِلَ بَيْنَكُمُ ٱللَّهُ رَبُّنَا وَرَبُّكُمْ لَنَآ أَعْمَـٰلُنَا وَلَكُمْ أَعْمَـٰلُكُمْ لَا حُجَّةَ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمُ ٱللَّهُ يَجْمَعُ بَيْنَنَا وَإِلَيْهِ ٱلْمَصِيرُ ﴿١٥﴾﴾ [الشورى: ١٥].

وقد قال عيسى عليه السلام لربه يوم القيامة: ﴿إِن تُعَذِّبْهُمْ فَإِنَّهُمْ عِبَادُكَ وَإِن تَغْفِرْ لَهُمْ فَإِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴿١١٨﴾﴾ [المائدة: ١١٨].

وبهذا يستريح ضمير المسلم، ولا يجد في نفسه أي أثر للصراع بين اعتقاده بكفر الكافر، وبين مطالبته ببره والإقساط إليه وإقراره على ما يراه من دين واعتقاد.

٤ ـ إيمان المسلم بأن الله يأمر بالعدل، ويحب القسط، ويدعو إلى مكارم الأخلاق، ولو مع المشركين، ويكره الظلم ويعاقب الظالمين، ولو كان الظلم من مسلم لكافر. قال تعالى: ﴿وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَـَٔانُ قَوْمٍ عَلَىٰٓ أَلَّا تَعْدِلُوا۟ ٱعْدِلُوا۟ هُوَ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَىٰ﴾ [المائدة: ٨].

وقال ﷺ: «دعوة المظلوم ـ وإن كان كافراً ـ ليس دونها حجاب»[1].

---

(١) رواه أحمد في المسند.

وقال تعالى: ﴿ لَا يَنْهَاكُمُ اللَّهُ عَنِ الَّذِينَ لَمْ يُقَاتِلُوكُمْ فِي الدِّينِ وَلَمْ يُخْرِجُوكُم مِّن دِيَارِكُمْ أَن تَبَرُّوهُمْ وَتُقْسِطُوا إِلَيْهِمْ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ ﴿٨﴾ ﴾ [الممتحنة: ٨].

والحمد لله أولا وآخراً، وصلى الله على نبيه محمد وعلى آله وصحبه وسلم تسليما كثيراً.

الفهرس

هذا الكتاب

إن " التعايش" بين أهل الأديان لا ينفي موقف كل منها نحو الآخر، ففي واقع حديّة المواقـف الإقـصائية والإلغائية التي يتبناها اليهود والنصارى حول الإسلام وأتباعه حتى أنهم لا يعترفون به كدين، يُرى في المقابل الموقف الإسلامي المنفتح والمستوعب لمبدأ الإختلاف، ويظهر ذلك واضحاً في جانبه المعاملاتي في حقـوق والواجبـات. رغم ما طرأ على هاتين الديانتين من تحوير وتغيير يثبته التاريخ ويدعمه المنطق وتظهره الحجة.

ورغم ما يظهره الإسلام موقفه العقـدي من مروق اليهود والنصارى من الدين وتمردهم عليه من خلال ما أحـدثوه فيه يبقى ينظرهم كأصحاب ديانة يحتويهم في مجتمعه ويقـر لهم حياتهم.

فما موقف الإسلام منهم؟